ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلة التاريخية الجزائرية

المجلد:05، العدد:01 (2021)، ص373-403

الحركة الوهَّابيَّة في تمثّلات الرِّحلة الاستشراقيَّة بناء الصُّورة

-كتابات "جون لويس بوركهارت" أنموذجا-

the wahhabi movement in representations of orientalist travel (construction of image) - writings of Jhon lewis Burckhardt as model -

جمال يزير

المركز الجامعي بآفلو (الجزائر)

djamelyazir83@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/05/27
تاريخ القبول:
2021/06/13

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الحركة الوهابية
- ✓ بوركهارت
- ✓ الرحلات الاستشراقية

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثيَّة للوقوف على موقع الحركة الوهَّابيَّة ودولتها السُّعوديَّة الأولى في بداية القرن التَّاسع عشر في كتابات الرَّحَّالة المستشرق الإنجليزي "**جون لويس بوركهارت**"، وما حوته من معارف علميَّة أكاديميَّة يمكن الأخذ بها كوعاء مصدري موضوعي يوثَّق به ضمن نطاق الدِّراسات والبحوث حول هذا الموضوع، حيث نقل لنا "**بوركهارت**" مجموعة مُدركَات واقعيَّة عاصرها وعايش أحداثها وتفاصيلها، في صورة المِخيَال الاستشراقي الرَّحَلِي، وضمَّنها كتاباته عن الشَّرق عموما. فقد أثمرت رحلاته الاستشراقيَّة مجموعة من الأدبيَّات تسرد وتحلِّل واقع الصِّراع بين الدَّولة السُّعوديَّة الأولى والدولة العثمانيَّة متمثِّلة في والي مصر "**محمد علي باشا**"، وطبيعة نُظُم الدَّولة وتأثيرات حضورها على واقع الحجاز في تلك الفترة.

Article info

Received:
27/05/2021
Accepted:
13/06/2021

Key words:
- ✓ Wahhabi movement
- ✓ Burckhardt
- ✓ Orientalist travels

Abstract:

This research paper aims to identify the location of the Wahhabi movement and its first state Saudi Arabia at the beginnig of the nineteenth century, in the writings of the English Orientalist traveler " Jhon lewis Burckhardt" and what it contains of scientific and academic knowledge can be counted as an objective source container trusted within the scope of the studies and researchs on this subject, where "Burckhardt" conveyed to us a gorup of realistic perceptions that he witnessed and lived with its events and details, in the form of the Orientalist travel literature imagination and including his writings on the Orient in general, his Oriental travels has yielded a group of the literatures that lists and decomposes the reality of conflict between the first Saudi Arabia state and ottman empire by mohamed Ali Bacha, also the nature of systems and the effects of its existence on reality of Al hijaz during that period .

مقدمة

لعب الاستشراق دوراً رائداً في اكتشاف العالم الإسلامي وفق الرؤية الغربيَّة بما تحمل تلك الأدبيَّات من خلفيَّة دينيَّة وسياسيَّة وثقافيَّة استعماريَّة أياً كانت، فهي ضمن نمط التَّفكير الغربي الهادف إلى اختراق المنظومة القيميَّة للمجتمعات الإسلامية، ويحاول فهم تجليّات ذلك المكنون الحضاري العريق الَّذي أرعب العقل الأوروبي، وجعله يتحيَّن الفرصة للانقضاض على الفضاء الإسلامي بكل تجليَّاته، مستهدفا التُّراث المادِّي والمعنوي الَّذي ورثه عن الدَّولة الإسلامية عبر مراحلها الطَّويلة، فمحاولات الغربيين لن تتأتَّى لهم حتَّى يدرسوا المجتمع الإسلامي دراسة من الدَّاخل وفي العمق الاستراتيجي للذِّهنية، قصد إزالة الغموض المتعلِّق بطبيعة البلاد وجغرافيتها وبنمط التَّفكير وأسلوب التَّديُّن وخبايا وقوام المجتمع الشَّرقي، والوقوف على مخرجاته الواقعيَّة والممارساتيَّة، حتَّى يتمكَّنوا من تنفيذ أجنداتهم القديمة والحديثة القائمة في أساسيَّاتها على تطويق العالم الإسلامي، وتفجير بنائه المعرفي والدِّيني والحضاري وفق ما تقتضيه ضرورة الموقف والحال.

ولعلَّه ليس من السُّهولة بما كان الوقوف على اسطوغرافيا الاستشراق الَّتي كتبت حول دعوة "**محمد بن عبد الوهَّاب**" وفرزها بصورة دقيقة، بسبب غزارتها وتنوُّعها بين مكوِّنات الفعل الثَّقافي الغربي من سياسيِّين وعسكريِّين ورحَّالة ورجال دولة واستخبار وغيرهم. لأنَّ الباحث يقف أمام عائق سِعة البحث المتراكمة والمتنوِّعة، عبر سنوات طويلة من محاولات الإحاطة بتفاصيل حياة شيخ الدَّعوة الوهَّابيَّة، وترتيبات الدَّولة الَّتي أسَّس لها نظرياً ووجدانياً، وتأثيراتها الدَّاخليَّة في شبه الجزيرة العربيَّة وخارجها عبر أقطار الدّولة العثمانيَّة، فضخامة الوعاء البحثي تُلزمنا بمحاولة فهم وتتبُّع مدلول تلك الكتابات وأهدافها الحقيقيَّة، الَّتي انطلقت مبكِّرا منذ نجاح الإسلام في تبوُّأ مكانة رفيعة في العالم القديم وتحطيم أسطورة التفوُّق الأوروبِّي، والهيمنة الحضاريَّة في القرون الأولى الميلاديَّة، تلك الكتابات المنطلقة في الأساس من دهاليز منظومة الفكر الاستشراقي الَّتي اصطبغت في غالب الأحيان بالأبعاد الاستعماريَّة الخالصة، وحدَّدت آليَّاتها الفكريَّة التَّطور اللاَّفت للنَّظر الَّذي استهدف التَّدقيق المعرفي في كل ما تعلَّق بالأوضاع السِّياسية والثَّقافيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة لأقطار العالم الإسلامي حيث كانت محلَّ أطماعهم الاستعماريَّة بداية من الفترة الحديثة.

ولا نستغرب أن تلك الكتابات ازدادت حدَّة وتنظيما وتوسُّعا بداية من القرن الثَّامن والتَّاسع عشر، وأخذت لوناً آخرًا تمثَّل في الرِّحلة الاستشراقيَّة الَّتي قام بها المغامرون والأكاديميُّون والمؤسَّسات الاستشراقيَّة الغربيَّة، وأخذت طابع التَّدافع المعرفي والتَّراكم العلمي لتصبح رسميَّة مزكَّاة من السَّاسة والعسكريِّين، وبمباركة من رجال الدّين المسيحيِّين، وممنهجَةً وفق الرؤية الحضاريَّة الغربيَّة المتوجِّهة نحو التَّعرُّف على الشَّرق، وما يحويه من رصيد حضاري وتاريخي، يساعدهم على تحقيق الهدف الاستعماري الرَّئيس، وهو تفكيك العالم الإسلامي، وفصل تلك الأقطار عن الخلافة العثمانيَّة الآخذة في التَّهاوي.

وفي هذه الدَّائرة يأتي بحثنا الَّذي يحاول التَّركيز على الكتابات الاستشراقيَّة للرحَّالة البريطاني "**جون لويس بوركهارت**" حول الحركة الوهَّابيَّة في دورها الأوَّل، التي تمخَّض عنها نشوء دولة فتيَّة ستأخذ حيِّز الاهتمام في

سياسات الغرب في تلك الفترة لارتباطها الوثيق بمخطَّطاتهم الاستعمارية الآخذة في التَّوسع والتَّمركز. كما يرمي بحثنا لتتبُّع صدى الدَّعوة الوهَّابيَّة في المخيال الحضاري لـ "بوركهارت". وتأسيسا على ما سبق يمكن طرح الإشكالية البحثيَّة التَّالية: **إلى أيِّ مدى تمكَّن الرَّحَّالة "بوركهارت" من تفكيك صورة الحركة الوهَّابيَّة في الحجاز وإعادة بنائها؟**

عبر أجزاء البحث تتولَّد مجموعة أهداف هي: أوَّلا: التَّعرف على الرِّحلة الاستشراقيَّة لبوركهارت إلى الشَّرق عموما وشبه الجزيرة العربيَّة على الخصوص، ومخرجاتها العلميَّة والحضاريَّة. ثانيا: منطلقات وأهداف رحلة "**بوركهارت**" إلى تلك الرُّبوع من الشَّرق. ثالثا: دور "**بوركهارت**" في دعم الذِّهنيَّة الاستعماريَّة والاستشراقيَّة للجمعيَّة الملكيَّة الإفريقيَّة بلندن في أوائل القرن19م. رابعا: القيمة المعرفيَّة لكتابات "**بوركهارت**" حول الحركة الوهَّابيَّة، والدَّولة السُّعوديَّة الأولى في كونه صاحب السَّبق المعرفي للرَّحَّالة الغربيين في تلك الفترة. خامسا: الوقوف على رواية "**بوركهارت**" لأحداث رَدّة فعل الدَّولة العثمانيَّة من هذه الحركة المقلقة والمؤثرة على سيرورة نظريَّة إلتئام المركز والأطراف.

توافق المنهج التَّاريخي الوصفي في تتبُّع مدركات الرِّحلة الاستشراقيَّة، وتفاعل ساكنة الحجاز مع تطوُّر الحركة الوهَّابيَّة ضمن المجال والتَّاريخ. كما لَزَم استعمال المنهج التَّاريخي التَّحليلي للتَّعرُّف على الملامح السُّوسيوتاريخيَّة لتطوُّر الدَّولة السُّعوديَّة الأولى، وظروف القضاء عليها من طرف "**محمد علي**"، وتأثير الزَّمن التَّاريخي في تحديد هويَّة ومكانة الحجاز التَّاريخية في إطار الفعل الحضاري المؤدِّي إلى اكتشاف الذَّات العربيَّة بتعبير القبيلة والحاضرة عن سلوكها السِّياسي في نطاقها الطَّبيعي وعبر إرادتها الشَّخصية.

1. مفهوم أدب الرِّحلة الاستشراقيَّة

تتجاذب أدب الرِّحلة دراسات نقديَّة يمكن تقسيمها إلى مدرستين: تاريخيَّة وتحليليَّة، الأولى: تغلب عليها منهجيَّة توثيقيَّة، يكون فيها تخصص لتلخيص حياة الرَّحَّالة، وأسماء الأماكن الَّتي مروا بها في رحلاتهم، وزمن الرِّحلة ومسارها، أمَّا المدرسة الثَّانية: فمعنية بتحليل نصوص الرَّحَّالة وتفكيك خطابها [1]. وينبغي التَّأكيد على أنَّ الرِّحلة الغربيَّة إلى العالم الإسلامي **(الشَّرق)** تدخل ضمن الأدوات الماديَّة، والعقليَّة للتَّعرُّف على تلك الرُّبوع، وبالتَّالي تصبح تلك الرَّحلات المادَّة الدَّسمة لوعي، وإدراك الأوروبيِّين حول الشَّرق، وتمثِّل الوعاء الفكري للاستشراق.

وهنا تتبيَّن لنا تلك العلاقة غير القابلة للانشطار والانفصال بين الرِّحلة والاستشراق، حيث بين " **ادوارد سعيد**" أنَّه تحت العنوان العام لمعرفة الشَّرق، وتحت وصاية الهيمنة الغربيَّة من أواخر القرن الثَّامن عشر حتَّى إلى غاية برزت صورة الشَّرق المعقَّدة، حيث كانت مناسبة للدِّراسات الأكاديميَّة الغربيَّة في مجال النَّظريات الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة والشَّخصيَّة والثَّقافيَّة.[2]

فمنطلقات الرَّحَّالة النَّفسيَّة والعقليَّة للإنسان الأوروبِّي تأتي كمحرِّك أساسي لحركة الاستشراق، ودافع ليكتشف ذلك العالم المجهول مستعملا الرَّصيد المعرفي السَّابق من أقرانه، ومن تركة التُّراث الرَّحَلِي العربي

الإسلامي، حيث يحاول تفكيكه ليَزُجَّ به لبناء معرفة جديدة، وفقا للتَّمثُّلات الَّتي يصوغها وفق الرُّؤية الغربيَّة عبر ثنايا رحلته. ويمكن القول حول مفهوم الرِّحلة الاستشراقيَّة بأنَّ المستشرق يظهر فوق كل شيء باعتباره الشَّخص الَّذي يسافر وبصورة أدق ما أورده " **Flaubert** " في "**Dictionnaire Des Idees Recepts**" بأنَّ المستشرق هو رجل سافر كثيرا، وفي الواقع يعتبر السَّفر في الشَّرق في القرن التَّاسع عشر أمراً ضرورياً لأيِّ فنان والكثير منهم يضع قصَّة عودتهم، كما قام " **نيرفال**" عام 1851م بنشر " **رحلة إلى الشَّرق**" و"**بيار لوتي**" بإحياء" **الرِّحلة إلى الشَّرق**"، بما في ذلك زيارته إلى القسطنطينية عدَّة مرَّات، ليؤلِّف رواية هي "**شبح الشرق**" عام 1892م[3].

2. مفهوم الاستشراق

لم تفرد المراجع المتخصِّصة في الحركة الاستشراقيَّة تعريفاً موحدًا للاستشراق يمكن اعتباره مرجعيا له، إلا أنَّها تتَّفق على الجانب المفاهيمي في إطاره العام الموحي والمتشابه في الدَّلالة والمعنى، وعليه فيمكن أن نورد هذا المفهوم الَّذي يبدو متناسقا مع وحدة الحقل المفاهيمي للمصطلح. فالاستشراق "**Orientalism**" في الأصل حركة علميَّة لفهم الشَّرق، فهو تعبير يدلُّ على الاتِّجاه نحو الشَّرق ويطلق على كل من يبحث في أمور الشَّرقيين وثقافتهم وتاريخهم، ويقصد به ذلك التَّيَّار الفكري الَّذي يتمثَّل في إجراء الدِّراسات المختلفة عن الشَّرق الإسلامي، والَّتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته؛ إذ أسهم هذا التَّيَّار في صياغة التَّصوُّرات الغربيَّة عن الشَّرق عامَّة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصَّة، معبرا عن الخلفيَّة الفكريَّة للصِّراع الحضاري بينهما[4].

1.2. لغة

كلمة مستشرق تأتي في اشتقاقها اللُّغوي من الجذر "**شرق**"، أولئك الَّذين يدرسون الشَّرق أو المشرق ويتطلَّعون إليه أو الَّذين يميلون إلى الشَّرقيين / المشرقيِّين. فكلمتا "**مشرق**" أو "**مشرقيُّون**" تنحيان لأن تكون لهما دلالة معنويَّة أكثر من كلمتي "**الشَّرق**" أو "**الشَّرقيين**"، ومن ثمَّ فإنَّ كلمة مستشرقون تحمل معنى أوسع مما يحمله المصطلح الغربي الحالي **Oriontaliste**.[5]

2.2. اصطلاحا

وردت الكثير من التَّأصيلات المعرفيَّة الَّتي تدخل ضمن الحقل المفاهيمي الموسَّع للمصطلح، فمن الباحثين والمفكرين من يراه ظاهرة صحيَّة تدخل في إطار الصِّراع الحضاري، وهناك من لا يصنع له منطقا تبريرياً بحجَّة أنَّ غاياته مشبوهة وليست ضمن ما تقتضيه ضرورة محاولة الفهم الحضاري للإسلام وأهله، وخاصَّة إذا ارتبط ذلك المجهود الفكري للمستشرق بالاختراق، ومحاولة صناعة الوهم خدمة للاستعمار المعاصر، وهذا ما يدخل ضمن دائرة ورقتنا البحثيَّة هذه وعليه فيمكن الحديث عن مجموعة من التَّعاريف المستقاة على سبيل الحصر لا التَّعيِّين لإبراز المفهوم:

التَّعريف الأوَّل: الاستشراق هو العالم الشَّرقي، وهو ذو معنيين: عام يطلق على كل غربي يشتغل بدراسة الشَّرق كلّه، أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه، ومعنى خاص وهو الدِّراسة الغربيَّة المتعلِّقة بالشَّرق الإسلامي في لغاته وتاريخه وعقائده[6].

التَّعريف الثَّاني: للعلاَّمة النَّدوي: هي أعمال العلماء الغربيين الذين وقفو حياتهم لدراسة العلوم الإسلاميَّة ممَّن تثقَّفو في مراكز الغرب الثَّقافية الكبرى، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب بشبهات حول الإسلام، ونبي الإسلام والمصادر الإسلامية، أحدثوا في نفوسهم يأسا من مستقبل الإسلام، ومقتا على حاضره وسوء ظنٍّ بماضيه، كما لهم حضا وافرا في الحثِّ على نعرة إصلاح الدِّيانة والقانون الإسلامي[7].

التَّعريف الثَّالث: عند المفكر "**ادوارد سعيد**" حيث يقول في كتابه: "**الاستشراق المفاهيم الغربيَّة للشَّرق**": "**... أعتبره أسلوب تفكير يقوم على التميِّز الوجودي والمعرفي بين ما يسمَّى الشَّرق والغرب، يتزَّعمه الشُّعراء والفلاسفة والمنظِّرين والاقتصاديون ومديرو الامبرياليَّة للهيمنة على الشَّرق وإعادة بناءه والتَّسلُّط عليه...** "[8]. في جملة التَّعاريف الَّتي أوردناها نقف على التَّعريف الأخير؛ الذي يحمل صبغة مفاهيميَّة تلامس متطلَّبات الاستشراق المعاصر الَّذي واكبته الحركة الاستعماريَّة، والهجمة الشَّرسة لآلتها التَّطويقيَّة في ظلِّ ظروف العالم الإسلامي حيث ميَّزها بداية مرحلة التَّراجع الحضاري والعجز على مستوى بنية الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة، وظهور بوادر التَّفوق الأوروبِّي، عبر واقع كرَّسته الثَّورة الصناعيَّة، وتنامي نشوء القوميَّات الأوروبيَّة الَّتي ترى في العالم الشَّرقي مناخا خصبا لإعادة بناء جغرافيا جديدة لتلك المجتمعات الشَّرقية، البعيدة عن مرابطها منذ بداية الفترة الحديثة، وبزوغ نجم الدَّولة العثمانيَّة.

وفي هذا الإطار أعطى المفكِّر "**ادوارد سعيد**" مصطلحا آخر للاستشراق، وهو "**الدِّراسات الاستشراقيَّة**" أو "**دراسة المناطق**"، مبررا الأسباب وراء ذلك، حيث حدَّدها بإثنين: الأوَّل: أنَّه يتَّسم بقدر أكبر من الغموض والتَّعميم، والثَّاني هو أنَّ من ظلال معانيه الإيحاء بالاستعلاء، الَّذي كان رواد الاستعمار الأوروبي في القرن التَّاسع عشر ومطلع القرن العشرين يتشبَّعون به، وذلك عن طريق الكتابات الأكاديميَّة والمذاهب الفكريَّة، وقضايا الشَّرق حيث عقدت حولها المؤتمرات الكبرى[9].

ويذهب هذا المفكِّر إلى أنَّ الدِّراسات الاستشراقيَّة هي مباحث أكاديميَّة؛ لأنَّ صاحبها يشتغل في حقل التَّدريس، أو الكتابة سواء كان ذلك في مجال الأنثربولوجيا أو علم الاجتماع أو التَّاريخ أو فقه اللُّغة، أو ما تعلَّق بجوانب الشَّرق العامَّة أو الخاصَّة.[10]وذلك ما يعني أنَّها تأخذ الطَّابع الرسمي لهيئات أو ساسة أو ملوك أو رجال، باعتبار أنَّ ذات ارتباط وثيق بالتوجه العام للغرب الأوروبي.

3. مضمون الاستشراق

لعل من الواقعية والموضوعية أن نبين مجالات البحث الاستشراقي للحكم على مدى خطورة مخرجاته الأدبيَّة. هذا الرِّواق العلمي الَّذي ساهم في اكتشاف الشَّرق ورسم معرفة متكاملة، وفق جملة الأنساق الغربيَّة، ويمكن تحديد تلك الأطر وفق الآتي:

1.3. التّشكيك في صحَّة الرِّسالة المحمَّديَّة

ترسّخ لدى الإنسان الأوروبّي طوال العصور الوسطى أنَّ كلَّ معرفة عن العالم والإنسان والرَّب، مستمدَّة من الكتاب المقدَّس، حيث لم يكن في وسعهم إدراك توفُّر صياغات بديلة للتَّعبير عن تلك المفاهيم، ومنه فإنَّ أيَّ اختلاف لتعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحيَّة تعدُّ بالضَّرورة الأولى زائفة.[11] ويمكن أن نورد مثالا على هذا المتخيَّل العقدي وهو ما يصوِّغ له القدِّيس "**توما الإكويني**" في إصراره على أنَّ صحَّة العقيدة المسيحيَّة تدعمها الآيات والأدلَّة، الَّتي في المقابل مفتقرة لدى أمثال "محمد" الَّذين أسّسوا ما أسماه الفرق، وسذاجة الأدلَّة والحجج، وخلطه الحق بقصص لا سند لها في التَّاريخ، وتعاليمه الزَّائفة افتقاره إلى الأدلَّة التي تؤيِّد زعمه أنَّه نبي.[12]

وقد ورد زخم كبير من المزاعم والطُّعون في صحَّة الدَّعوة المحمَّديَّة نذكر منها: كتابات "**رينان**" المستشرق الفرنسي المعروف بعصبيَّته على الشَّرق والعرب والإسلام، ومواطنه "**غوستاف لوبون**" صاحب كتاب حضارة العرب و"**تولدكه**" الألماني المعروف بكتابه القيِّم حول القرآن وتاريخه، والأب "**لامنس**" صاحب كتاب معاوية والإسلام وغيرهم.[13] ويمكن ذكر بعض تلك الأحكام، حيث يقول "**المسيكيمون**" في كتابه: "**ميثولوجيا الإسلام**" : "...**إنَّ الدِّيانة المحمَّدية جذام فَشَى بين النَّاس، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً؛ بل هو مرض مروِّع وشلل عام، وجنون ذهني يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدِّماء، ويدمن معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح وما قبر "محمد" في مكَّة إلا عمود كهربائي يبثُّ الجنون في رؤوس المسلمين**... ".[14] ويبدو أنَّ صاحب هذا الكلام انطلق من خلفيَّة مبيَّتة النِّية، وعن جهل وقصور معرفة بالإسلام وتعاليمه الحقَّة وعالميَّته، وسلميَّته التَّاريخية؛ فهو لا يعرف حتى مكان تواجد قبر النَّبي محمد ﷺ؟

2.3. الطّعن في صحَّة آيات القرآن ومجمله

إنَّ من أساليب المستشرقين المشبوهة محاولة تفكيك آيات القرآن الكريم، ونفي قدسيَّته في سبيل حلم هدم متخيَّل الدِّين ككل، فقد صبُّوا كل جهودهم العقليَة لإطلاق التَّفاسير والتَّراجم له، وتلفيق الشُّبه حول مضامينه. كان طريقهم إلى هذا ترجمة القرآن، ومعانيه قد انطلقت مبكِّرا في العصور الوسطى، الَّتي ازدهرت في بداية الفترة الحديثة مع اكتشاف الطِّباعة، ثم أصبحت في القرنين التَّاسع عشر والعشرين رائجة بقوَّة، ومنها ترجمة "**كزيميرسكي**"، الَّذي نقل معانيه إلى اللُّغة الفرنسيَّة سنة 1840م و"**جاك بيرك**" 1990م، وترجمتي "**رودويل**" إلى اللُّغة الإنجليزية عام 1861م، و "**بلمير**" عام 1880م، و"**بيل**" ما بين عام 1937م و1939م[15].

ويمكن أن نتأمّل فيما زعمه "**جورج سيل**" في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن الكريم، التي صدرت عام 1736م، التي يقول فيها: "**أما محمد كان في الحقيقة مؤلّف القرآن، والمخترع الرئيس له فأمر لا يقبل الجدل**" [16]. **ولم يتوقَّفو عند هذا الحدِّ بل هناك من شكَّك في مصدريَّة القرآن الكريم مثل "إبراهام جيجر" الَّذي ادَّعى أنَّ الرَّسول قد اطَّلع على كتب اليهود بالعبريَّة والآراميَّة، و"ريتشارد بيل" الَّذي كتب في مقدمة ترجمة**

القرآن الكريم " أنَّ النَّبي محمد ﷺ قد أعتمد في كتابه على الكتاب المقدَّس (أسفار العهد القديم)، ليفسِّر تعاليمه ويدعمها، وقد استمدَّ من مصادر يهوديَّة ونصرانيَّة، وكانت فرصته في ذلك في المدينة للتَّعرُّف على ما في العهد القديم، أفضل من وضعه السَّابق في مكَّة حيث كان على اتصال بالجاليات اليهوديَّة، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقلّ"[17]. فبهذا الكلام ينكر هؤلاء مصدر الوحي الإلهي للقرآن الكريم، لتصبح تقليدا راسخا في أدبيَّات المستشرقين المتعصِّبين بعدهم.

3.3. التَّصوُّرات المشبوهة حول السُّنَّة النَّبويَّة وسيرة النَّبي محمد ﷺ

سار الاستشراق في رواق الهجوم على الإسلام بهدف الإنقاص من قيمة السُّنَّة النَّبويَّة وتبعاتها المعرفيَّة وحول سيرة المصطفى ﷺ، في محاولة لهدم المصدر الثَّاني للتَّشريع لدى المسلمين، وهي متنوِّعة وطويلة الأمد، ولا يمكن حصرها.[18] ولعلَّ أبرز تلك المحاولات الَّتي تنمُّ عن حالة اللاَّموضوعيَّة في الحكم على التُّراث السُّنِّي في صورة الحلقة الثَّانية من استكمال الهجوم على القرآن الكريم، والَّتي يمكن التَّمثيل بها في اعتماد الشَّكِّ غير المنهجي والاعتماد على الاحتمالات في صحَّة الحديث النَّبوي الشَّريف الَّذي تبنَّاه المستشرق "**جولد تسيهر**" في الآتي: زعمه أنَّ حديث : "**لا تشدُّ الرِّحال إلاَّ لثلاث مساجد**" من وضع الإمام "**الزّهري**"، الَّذي أوكل إليه "**عبد الملك بن مروان**" وضع هذا الحديث من أجل تشريع الحجّ إلى بيت المقدس، وذلك خوفا من أخذ "**عبد الله بن الزبير**" البيعة من أهل الشَّام الَّذين يحجُّون إلى بيت الحرام في مكّة[19].

وما هذا الحكم المطلق الَّذي بُني على تكهُّنات واستنتاجات غير علميَّة، فهي مجرَّدة من كل بيِّنة وتحقُّق وتبيان معرفي، وهو خاضع لربط غير منهجي يقوم على احتماليَّة غير مؤسَّسة، لارتباط تدوين الحديث بالصِّراع السِّياسي بين الصَّحابة على الحكم، وهذا ما يمكن اعتباره تجنِّي على الأشخاص، وتشكيك حتى في إيمانهم، وهو ما يعتبر بعيدًا كلَّ البعد عن علم الحديث والتَّحقُّق من الرُّوَّاة والمتون، الَّذي يعتبر من العلوم الإنسانيَّة الدقيقة التي أعتمدها حتّىَ الغرب في ما بعد في علم التَّاريخ، وكانت منطلقا للتَّأسيس لمدارسهم المعاصرة. ومن أعمدة الاستشراق الدِّيني "**جوزيف شاخت**" الَّذي ألَّف كتاب "**المدخل إلى الفقه الإسلامي**" و"**أصول الشَّريعة المحمَّدية**" وخلاصة ما جاء به هذا المستشرق أنَّه لا يمكن اعتبار الأحاديث كلُّها صحيحة إجمالا، لأنَّ ذلك في الجزء الأكبر من القرن الأوَّل لم يكن للفقه الإسلامي وجود، كما كان في عهد النَّبي محمد ﷺ، والقانون؛ أي الشريعة بهذا كانت تقع خارج نطاق الدِّين، فقد كانت قضيَّة القانون والشَّريعة تمثُّل عمليَّة لا مبالاة بالنِّسبة للمسلمين.[20]

وهذا ما يعتبر نفي لبعض تعاليم الدِّين التي أتمَّتها السُّنَّة النَّبوية الشَّريفة عبر الأحاديث الَّتي ثبتت صحَّتها، وهو ما لا يمكن اعتبارها مصدرا من مصادر التَّشريع بزعم أنَّها ليست من الدِّين، جاهلا ومتغافلا أنَّ هناك تفسير للسُّنَّة وحجِّيتها وفق مظاهر التَّمدن الإسلامي يبتغيه العلماء والفقهاء والمحدِّثون، وأنَّ الإسلام صالح لكلِّ زمان ومكان، وأنَّ الفقيه المجتهد يعتبر السُّنَّة مكمِّلة للقرآن في الاجتهاد.

وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن الحديث عن الدِّراسات الاستشراقيَّة التي حاولت تطبيق المنهج العلمي الغربي في دراسة مصادر السُّنَّة والسِّيرة النَّبويَة ومَضَان كل منهما؛ حيث يتحدَّث المستشرق "**مونتغمري وات**" في كتابَيه : "**الوحي الإسلامي**" و "**السِّيرة النَّبويَّة**" عن مناهج عديدة كالتَّأثير والتَّأثُّر بالدِّيانات السَّابقة، على اعتبار أنّ النّبي محمد ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنوَّرة أخذ ينقل عن اليهوديَّة والمسيحيَّة، وأعطى أمثلة عن فرض صلاة الظُّهر مجاراة للعادات اليهوديَّة وصلاة الجمعة، والتوجُّه نحو القدس في الصَّلاة وصيام عاشوراء وتحليل طعام أهل الكتاب والزَّواج بالكتابيَّات ...وغيرها.[21]

ومن خلال طريقة تعامل هذا المستشرق يبدو أنَّه أراد الفصل بين الدِّيانات، والمقارنة الغير متوازنة بينها، وذلك أنَّ من الطَّبيعي أن نفرِّق بين النُّبوَّة والرِّسالة فالنّبي محمد ﷺ في نبوَّته يجتهد، كما تكون له الخيرة أن يستقي من شريعة الأوَّلين في المعاملات وحتَّى العبادات حتى تأتيه آيات القرآن لتوجُّه أحكامه واجتهاداته، إمَّا بالتَّأكيد أو بالبديل؛ على اعتبار أنَّ التَّفاضل لا يقع بين الدِّيانات في ما هو متَّفق عليه ومشربه ثابت لم يطله التَّحريف والتَّغيير، ثمَّ أنَّ الرِّسالة المحمَّديَّة المختلفة عن النُّبوَّة مختصَّة بالدّين الإسلامي، ولا مجال فيها للاجتهاد؛ فهي يقينيَّة الثُّبوت والدَّلالة، وعليه فهذا المنهج يرمي إلى الزَّجِّ في جدليَّة المأخذ والفرع، بهدف التَّقليل من حجِّيَّة الإسلام وخاتميته ونسخه لباقي الكتب، كما يهدف إلى مرامي تهويديَّة وتنصيريَّة خالصة.

4.3. تجاهل الحقائق بالبحث الفقهي والعقدي

كثير من المستشرقين اشتغل في ميدان الفقه وأصوله وحاول أن ينفي تلك الاستقلاليَّة والتَّميز والإبداع والتَّجديد الّذي تفرَّد به العلماء المسلمون عبر العصور، في مواكبة الدِّين لمستجدَّات العصر ونوازله الظَّرفيَّة التي تستدعي تلك الاجتهادات العقليَّة وتكيفاتها الشَّرعيَّة، وحلحلة ذلك اللُّبس المقاصدي الّذي يقع فيه كل مسلم، وهو ما جعل الكثير من المستشرقين يحاولون عبثا الإنقاص من القيمة المعرفيَّة والشَّرعيَّة للعقل الفقهي، وفكره عموما؛ حيث أغاض نفوسهم وجعلهم يستصغرون ذلك الإنتاج الفقهي الزَّاخر والّذي كان نتاج عبقرية العقل الاجتهادي الخالص بهدف جعل الدِّين متاح ميَّسر للعوام من معتقديه. ولعلَّ مما يستوجب ذكره في هذا الإطار تلك الدّراسة الَّتي انتهى إليها المستشرق الفرنسي "**بوسكه**" في كتابه "**تكوُّن الفقه وأصل مصادره عقدة لم تنحل**"، من أنَّ كل الاجتهادات الفقهيَّة التي قام بها العلماء لم تكن لولا التّلمود وأنَّ اليهوديَّة كان لها الفضل في تكوُّن الإسلام في عصر النَّبي محمد ﷺ، وأنَّ هناك نقاط تشابه بين اليهوديَّة والإسلام أكثر منها وبين المسيحيَّة، بل أكثر من ذلك هناك اعتبارات تحدِّد الإسلام على أنَّه يهوديَّة ذات صبغة عالمية.[22]

ومن الادعاءات الَّتي شابت انتقادهم للفقه الإسلامي وإنتاجه أنّ غلاة المستشرقين اعتبروا الأعراف والتّقاليد الجاهليَّة الّتي كانت قانون للعرب قبل الإسلام، وتأثّرت بالقانون الرّوماني بسبب التّجارة والاتِّصال السِّياسي والفكري، ودليل ذلك أنّ الإسلام لم يُلغ كلَّ حياة الجاهلية بل أقرَّ منها ما كان ملائما، وهو ما يمكن اعتباره أنَّه قد أثَّر في الشَّريعة والفقه الإسلامي بطريقة غير مباشرة.[23]

يبدو أنَّ نظرة المستشرقين يشوبها التَّقزيم للعقل الاجتهادي الإسلامي، وأنَّه حبيس الحضارة البيزنطية الَّتي لاحت بأطرافها في شبه الجزيرة العربيَّة، وتناسى أنَّ المجتمع العربي في تلك البلاد عريق عراقة مملكة سبأ وحضر موت وملك سليمان وعاد وثمود، بل وسلالة سام بن نوح الَّتي صنعت لهذا العالم صورة بدايات الخليقة في تلك الرُّبوع، **فكيف لهذا العقل أن لا يستعيد مكامن الإبداع و العبقريَّة؟** ثم أن مجتمع مكَّة والمدينة بالخصوص وجزيرة العرب بالعموم مجتمعات توارثت مونوغرافيتها البدويَّة والحضريَّة للقبيلة العربيَّة بطابع القداسة والرَّمزية الَّتي توارثتها عن الأجداد، وكانت بمثابة دستور لا يحيد عنه إلا صابئ؟ وما رفضهم للدِّين الجديد الَّذي جاء به محمد ﷺ وقتالهم له وهو أصيل مدينتهم وإثنيَّتهم إلاَّ أعظم دليل على أنَّ قوانين القبيلة لا يمكن هدمها ولو على جُثثهم؟ وعليه فهذه الافتراءات مردودة عقلا وتاريخاً وواقعاً.

4. أهداف الاستشراق ومرامي المستشرقين

لا شكَّ أنّ الذِّهنية الاستشراقيَّة تعمل وفق أجُندات ظاهرة وباطنة، وتعمل ضمن الحقل الأكاديمي الخالص الذي يمكنُّها من تحقيق المعرفة النَّظرية عن العالم الإسلامي، ومن ثَمَّ الأخذ بزمام المبادرة في تفكيك الكمِّ الهائل من مُخرجاتها العلميَّة لتحقيق الرَّغبة المنشودة، وهي إحكام السَّيطرة الحضاريَّة، والتَّمكين من فهم دواخل وخبايا المجتمع الإسلامي بتفرُّعات الاستشراق المعرفيَّة الّتي تشمل الدِّين وتراثه والعادات والتَّقاليد والأنثربولوجيا والسُّوسيولوجيا ونمط التَّفكير والسُّلوكات الحضاريَّة لمنتسبي الإسلام والحضارة العربية الإسلامية، ومن هذا المنطلق وجب تّبيان جملة الأهداف والمرامي من الحركة الاستشراقيّة .

1.4. الأهداف الدِّينيَّة والسِّياسيَّة

من خلال مضامين الدِّراسات الاستشراقيَّة يتَّضح لنا أنَّ أغلبها ترمي إلى تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري بالادِّعاء بأنَّ الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرُّومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلاَّ نَقَلَةً لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري، ومن ثمَّة إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبثُّ روح الشَّكّ في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومُثُل عُلياَ[24]. وبالنَّظر إلى وحدة أهداف الاستشراق فإنَّنا نرى أنَّ الكُل يرمي إلى مواجهة الشرق وإعادة صياغته على النَّمط الأوروبي، لذلك فإنَّ مساعيهم إلى الوقوف على تاريخه وواقعه إنَّما هو بغرض فهمه من جهة، ومن جهة أخرى التَّعرُّف على نواحي الضُّعف والقوَّة فيه لذلك ركَّزت الدّراسات على الفئات المتطرِّفة في تاريخ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة كالشُّعوبيِّين وبعض الحركات المذهبيَّة والأقليَّات العرقيَّة وإبراز أنماط معيَّنة من النُّصوص الأدبيَّة والفكريَّة والعناية بها دراسة وتحقيقا ونشرا، كما هي الحال في موقفهم من "**ألف ليلة و ليلة**" ونصوص المتصوِّفة المتطرِّفين وإخوان الصَّفا وغيرها[25]. فالعامل الدِّيني لتكوين الاستشراق قديم يرجع إلى القرن الثَّالث عشر الميلادي، فهو يهدف إلى نشر الدِّيانة المسيحيَّة وتبليغ دعوتها، وتصوير الإسلام بما يثبت به فضل المسيحيَّة ورجحانها على الإسلام ويبعث في الطَّبقة المثقَّفة إعجابا بالمسيحيَّة وحرصاً عليها ولذلك نرى أنَّ الاستشراق وتبليغ الدِّيانة المسيحيَّة يسيران معا في أغلب الأحوال وأنَّ عدد المستشرقين الأكبر أساقفة وعدد كبير منهم

يهودا ديانة وجنسا[26]. وفي مجمل القول في هذه النُّقطة أنَّ أساليب وغاية المستشرقين من دراسة العالم الإسلامي عقيدة وشريعة من خلال وجهة نظر المفكِّرين تكمن في معرفة العالم الإسلامي لمحاربته وتشويهه، وإبعاد النَّصارى عنه وتنفيرهم واعتباره خطرا على الغرب وعلى وحدته الرُّوحية، وهو ما أكَّده "**مكسيم رودنسون**" بقوله: "... **لقد كان المسلمون خطرًا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلته، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بيان الوحدة الرُّوحيَّة للغرب، ونموذجاً حضارياً يمتاز بتنافسه وبحركته الإبداعيَّة المتسارعة وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب؛ إذ أنَّه وفي مواجهة تقدُّم هذا النَّموذج عبر مُثقفي الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام وبدا لهم ذلك وكأنَّه خطر على المسيحيَّة...**"[27].

2.4. الأهداف العلميَّة

أخذ هذا الهدف ثلاث اتّجاهات هي: أوَّلا: البحث عن نقاط القوَّة في الدّين الإسلامي وفي المسلمين للإفادة منها في نهضة الشعوب الأوروبية، وخاصة عندما فتح المسلمون الأندلس وأقاموا فيها حضارة زاهرة واكبتها نهضة علميَّة، فحرص المستشرقون على أن ينهلوا من علوم الشَّرق الإسلامي ويقتبسوا من حضارته بتعلُّم اللُّغة العربيَّة والتَّتلمذ على أيدي علماء المسلمين، والرحلة إلى حيث يقيمون، ثانيا: البحث للمعرفة والاطلاع على حضارة الأُمم وأديانها وثقافتها ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقلَّ خطأ في فهم الإسلام وتراثه لأنَّهم لم يكونوا يتعمَّدون الدَّسَّ والتَّحريف، فجاءت أبحاثهم أسلم من أبحاث كثير من المستشرقين رغم وجود الخطأ فيها، ثالثا: البحث لمعرفة الدِّين الإسلامي والعمل على نقله مشوَّهاً إلى الجماهير الأوروبيَّة ليُثبتوا للعالم المسيحي أنَّ الإسلام دين لا يستحقُ الانتشار، وثمَّ تطوَّر الأمر إلى زعزعة المثل العليا للإسلام في نفوس المسلمين وإثبات تفوُّق الحضارة الأوروبيَّة [28]. وفي هذا المنحى العلمي للاستشراق تظهر المدرسة الحديثة له في القرنين السَّادس عشر والسَّابع عشر، حيث أخذ الغرب يضاعف من اهتمامه بالثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، ويطبع الكتب العربيَّة وينشئ مدارس علومها ويقيم كراسي في جامعات الغرب للاهتمام بالمصادر العربيَّة تحقيقاً لها وخدمةً لها وكشفاً عن كنوز المعرفة في تراثنا، في الوقت الذي كان العالم الإسلامي غافلا عن كل ما حوله مستسلما لواقعه راضياً بتخلُّفه، وكان دور المستشرقين في هذه الفترة إيجابيا خدم الثَّقافة العربيَّة وشجَّع البحث والنَّقد وسعى في تطوير مناهج الدِّراسات الإسلاميَّة، واستطاع المستشرقون أن يعرفوا الغرب بالتُّراث العربي الإسلامي، وأن يصحِّحوا كثيرا من المفاهيم الخاطئة عن هذا التُّراث، بالرغم ممَّا كان المستشرقون يحملونه من عداء في أعماقهم للحضارة الإسلامية فإنَّ معظمهم كان يحرص على الموضوعيَّة أو على الأقل يتظاهر بها، وهذا موقف جدير بأن يوقظ النَّشاط العلمي في العالم العربي، ويساهم في تقدُّم مناهج البحث وشجَّعت على تكوين مدارس للبحث العلمي فيه[29].

3.4. الأهداف الثَّقافيَّة

يتحدَّث "**ادوارد سعيد**" عن الارتباط الثَّقافي للفرنسيين والإنجليز بالشَّرق عندما يقول:"... **الحديث عن الاستشراق يعني الحديث أساسا عن المشروع الثَّقافي البريطاني الفرنسي، وهو مشروع ذُو أبعاد متفاوتة**

تظمُّ من الأصقاع ما يتفاوت تفاوت الخيال نفسه، ويشمل الهند بأكملها وبلاد الشَّام ونصوص الكتاب المقدَّس وما ورد ذكره فيها من أراض وتجارة توابل، والجيوش الاستعماريَّة والتقاليد المديدة التي أرساها المديرون الاستعماريُّون، والمناهج والمواد الدِّراسية وأعداد لا تحصى من خبراء الشَّرق والمجموعة المنوَّعة والمركَّبة من الأفكار الخاصَّة بالشَّرق... "[30].

يتَّضح من هذا الكلام أنَّ الدّراسات الاستشراقيَّة الَّتي حضي بها الشَّرق بكل أممه لها ارتباط بالوجود الفرنسي والبريطاني الفعلي في القرن التَّاسع عشر في المنطقة، بداية من الدّراسات النَّظرية للمدرسة البريطانيَّة والفرنسيَّة ووصولا إلى الوجود الاستعماري لهتين الإمبراطوريتين في المنطقة، مما خلق تناغم حضاري شرعنته ذكر تلك البلاد في الكتاب المقدَّس على أنَّها موطن للقداسة والارتباط الرُّوحي ومنبع للمكنون الحضاري الزَّخم، الَّذي يمكّن الشعوب الغربيَّة من اختصار مسيرة الحضارة والتَّطوُّر، وما ابتلاع تلك الأصقاع عبر الحركة الاستعماريَّة إلا دليل على جودة وعتاقة الوصل بينها في الفترة الحديثة والمعاصرة، لتكون لها القسط الوافر من خيرات وثروات البلاد المستعمرة وتمتلك حتى الإرث الثَّقافي والماضي الاستعماري تأثُّرا بتلك الأمجاد على اعتبار أنَّها غنيمة حرب تفاعلت فيها ثقافة الهيمنة مع الولع بتقليد الغالب. ويمكن حصر اسهامات المستشرقين في خدمة التُّراث في مجالات هي:

أوّلا: البحث عن المخطوطات والرِّحلة إليها وجمعها ونقلها وحفضها وصيانتها، ثانيا: فهرسة المخطوطات وتوثيقها وضبطها وراقيًّا "**وعائيًّا أو ببيليوغرافيا**"، وربما تكشيفها وتلخيصها، ثالثا: تحقيق كتب التُّراث ودراسته مع العناية بالمعاجم وترجمته إلى اللُّغات الأوروبيَّة.[31]

4.4. الأهداف الاستعماريَّة

مما لاشكَّ فيه أنَّ الاستشراق قدَّم خدمات جليلة للحركة الاستعمارية، على اعتبار أنَّه ينفّذ أجنداتها النَّظرية بخصوص المعرفة العامة حول مجتمع الدراسة، وممَّا له صلة بإيضاح الدَّافع الاستعماري لدى المستشرقين ما قام به بعضهم من خدمات مباشرة للاستعمار، بتكليف من دوائر رسمية مثل "شركة الهند الشرقية" في شبه القارة الهندية وما قام به المستشرق" **فليبي**" الذي ترأَّس بعثات بريطانية إلى الجزيرة العربيَّة والأردن مما مكنَّه بعد تجواله من تزويد أجهزة المخابرات البريطانية بخرائط ومعلومات متنوعة، كما هو الشَّأن لـ" **كراوس**"**التشيكي**"، و"**هرجرنيه**" الهولندي و"ماسيون" الفرنسي، هذا الأخير الذي كان يشغل منصب مستشار المستعمرات الفرنسية والذي خلَّف ما يقرب من 650 مصنَّفا[32]. نجح المستشرقون في توظيف المؤسَّسة الاستشراقية الغربيَّة في خدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم وتمكين سلطانهم في بلاد المسلمين، ومنهم على سبيل المثال المستشرق الألماني "**كارل هينريش بيكر**" مؤسّس (مجلَّة الإسلام)؛ الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعماريَّة الألمانيَّة في إفريقيا والتي بموجبها تحصَّل الرَّايخ الألماني في 1855م/1886م على مناطق شاسعة في إفريقيا، مما نتج عنها تأسيس معهد اللُّغات الشَّرقيَّة في برلين عام 1887م، وهو معهد مهمَّته في الأساس الحصول على معلومات عن البلدان الشَّرقيَّة وعن شعوبها وثقافتها.[33]

وبالنَّظر إلى جاهزيَّة الدِّراسات الاستشراقيَّة في الفترة المعاصرة لخدمة الآلة الاستعماريَّة خصوصا بعد مؤتمر برلين الثاني 1884م-1885م، لوحظت مؤثّرا الهجمة الاستعماريَّة المسعورة على الشَّرق ودواخل القارة الإفريقية، التي مكَّنتها نشاط الرحالة والمستكشفين من الولوج إليها، ومعرفة مخرجات السيطرة الاستعمارية عليها خصوصا بعد نمو الرُّوح القوميَّة لدى الغرب، وتنامي وازدهار الثَّورة الصّناعية مما يوعز لها ضرورة الظَّفر بأكبر قدر من مناطق النُّفوذ والتَّوسُّع خدمةً لمصالح الرأسمالية النَّامية، بفعل ازدهار العمل التّجاري والاستثماري في ذهنية الإنسان الغربي مع مطلع القرن التاسع عشر، ممَّا يُحتّم على قادة الدول الغربية ضرورة إيجاد متنفَّس اقتصادي بديل من خلاله تؤول تلك الأقطار المتهالكة في الشّرق والبكر في إفريقيا، حيث تمثُّل لها بمثابة بديل جاهز للانقضاض عليه.

وفي هذا الشَّأن نشط الاستشراق في إمداد الحكومات الغربيَّة بالصُّور المتكاملة التي تمهّد عمليَّة وضع اليد عليها بدون تأخير، ويتحدث هنا القس "**سيمون**" فيقول: ".. **إنَّ الوحدة الاسلاميَّة تجمع آمال الشُّعوب السُّمر وتساعدهم على التَّملُّص من السَّيطرة الأوروبيَّة** ..." ويقول "**لورانس براون**": " **الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قوَّته على التوسُّع والإخضاع وفي حيويَّته، إنَّه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبّي**.. ".[34] يتَّضح من هذا أنَّ الاستعمار هو نتاج الفكر الاستشراقي، ويستمدُّ منه روحه ويوثِّق عمقه الاستراتيجي؛ باعتبار أنَّه يستلهم ذلك التَّفاعل العقلي والميداني منه، ويقود به إلى أذهان السَّاسة والملوك والعسكريين لينسجوا خُططهم على أرض الواقع في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

5.التعريف بالرَّحَّالة والمستشرق جون لويس بوركهارت ورحلاته (1784م/1817م)

1.5. المولد والنَّشأة

"**جون لويس بوركهارت**" " **Jean Louis Burckhardt**" مؤرّخ ورحَّالة ومستشرق ومؤلّف سويسري الجنسيَّة ولد بمدينة "**لوزان**" السّويسريّة بتاريخ الرَّابع عشر من شهر نوفمبر عام 1784م لعائلة عريقة من أم انجليزيَّة وأب سويسري، درس بجامعتي "**لايبزيج** Leibzig" و "**جوتنجن Gottingen**" الألمانيتين، والتي تخرَّج منها سنة 1805م، ولكنَّه اضطرَّ عام 1806م للرَّحيل عن بلاده عندما احتلَّت من قبل الفرنسيين بقيادة "**نابليون بونبارت**" متَّجها إلى لندن [35] . وتُوعز المصادر إلى أنَّ رحلته من سويسرا إلى لندن كانت سببها أنَّه عرف بالاستقامة والاحترام والجُرأة في إبداء رأيه كما عُرف بطموحه العلمي وجدّه واجتهاده في التحصيل والمعرفة، ولأنَّه مثل أبيه لا يثق في رجال الثَّورة الفرنسية لذلك ارتحل لعلَّه يجدُ الملاذ الآمن الَّذي افتقده في بلاده[36].

ويبدو أنَّ رغبة "**جون لويس بوركهارت**" في خدمة مصالح الحكومة البريطانيَّة الاستعمارية ضد غريمتها الفرنسيَّة، قد توافقت مع ما كان يحمله من غلّ وكُره للفرنسيين الذين أرغموه على هجرة بلاده، كما أنَّها سايرت توجُّهه في انتشار ثقافة أدب الرّحلة للشَّرق في إطار التوجّه العام للدُّول الاستعماريَّة آنذاك، التي كانت تقدّم الدَّعم المادّي والتَّغطية الرَّسميَّة في المجال الأكاديمي، الهادف إلى اكتشاف الشُّعوب المجهولة تمهيدا للسَّيطرة عليها مع بداية القرن التَّاسع عشر، وهو عصر التَّكالب الأوروبّي على القارَّة الإفريقيَّة عموما والشعوب

الإسلاميَّة خصوصا، حيث كانت عُرضة لهجمات المستشرقين المشبوهة على خلفية تهالك الدَّولة العثمانيَّة وتنامي نزعة الحَنَق والتَّذمّر من سياسات العثمانيين التي بدأت تُلقي بضلالها على السُّلوك التَّحرري والانفصالي على أيالاتها طيلة هذا القرن.

2.5. مشروع رحلة بوركهارت الاستشراقيَّة

كانت بداية مغامرته الاستشراقيَّة في انتسابه إلى الجمعيَّة الملكيَّة الإفريقيَّة في لندن عام 1808م، التي تولَّت تمويل الرَّحلات الاستكشافية لحوض النّيجر، حيث عرضت الجمعية الأمر على "**بوركهارت**" على أن يحاول الوصول إلى "**تمبكتو**" عن طريق اصطحاب قافلة من حجاج النيجر عند عودتهم من مكَّة مقابل منحه جنيها استرلينيًّا واحدا عن كلّ يوم، ولتنفيذ هذا الاتفاق تجنَّس بالجنسيَّة البريطانيَّة، وانتسب لجامعة "كامبردج" في العام نفسه في عمر الرابع والعشرين ليدرس اللُّغة العربيَّة والطِّب والفلك ويتأهَّب نفسيًّا وجسدياً لتلك الرّحلة المأمولة[37]. ولتعويد نفسه على تحمُّل مشاقّ السَّفر الَّذي سيلاقيه في مسيره أعفى لحيته وتدرَّب على المشي في حرّ الصَّيف في مقاطعة كامبردج بداية من سنة 1808م، متحمّلا الجوع والعطش مكتفيا ببعض الخضر وقليلا من الخبز والنَّوم على ضفاف الأنهار في العراء، وكَسَبيل لإتقان اللُّغة العربيَّة سافر إلى سوريا مستقلاً باخرة تجارية متَّجهة إلى ميناء البحر الأبيض المتوسّط في 2مارس 1809م، ليصل إلى جزيرة مالطا في أواسط أفريل، عازما الوصول إلى حلب كتاجر هندي مسلم اسمه "**ابراهيم بن عبدالله**" يحمل رسائل من شركة الهند الشرقيَّة الذي هو نفسه وكيل الشركة هناك، وقد وصل إلى سوريا ماكثا فيها عامين ونصف زار فيها تدمر وحُوران ودمشق؛ حيث غادرها نهائيًّا سنة 1812م[38].

هدفت هذه الخطوة في بداية الرّحلة إلى التَّمكن من اللُّغة العربيَّة نُطقاً وقراءة وبعضا من القرآن بالاتصال بالبدو في الشّام ومجالستهم والتعوُّد على ثقافتهم ونمط عيشهم مستأنسا بمظهره العربي مقلّدا إيَّاهم في سلوكاتهم وترتيبات عيشهم متوخّيا الحذر من اكتشاف أمره، وبالتَّالي القضاء عليه.

وقد أوصلته رحلته إلى بلاد الشَّام إلى شواطئ الفُرات لدراسة الإسلام ومبادئه، حتى اعتنقه رسميا وعُرف بشخصيَّة رجل مسلم اسمه "**عبد الله الشَّامي**"، ومما ينتسب إليه اكتشافه آثار مدينة البتراء القديمة، ومنها وصل إلى القاهرة في نهاية 1812م، واتَّصل بمحمَّد علي والي مصر لتسهيل سفره مع القوافل المتَّجهة إلى فزَّان بجنوب ليبيا، ومنها يتَّجه إلى نهر النّيجر لاكتشاف منابعه لمصلحة الجمعية الملكيَّة الإفريقيَّة بلندن، فسارت هذه الحملة من الشَّمال إلى الجنوب عكس مجرى النيل على ضفافه من سنة 1813م إلى 1814م، ثم انتقل من ميناء سواكن إلى جدَّة ليصل إلى الحجاز في جوان 1814م[39].

واستقر في شبه الجزيرة العربية متجولا في مكَّة والمدينة والطَّائف، التي التقى فيها بمحمَّد علي مؤدّيا مناسك الحجّ دون أن يحوم حوله أدنى شك، حيث كانت له علاقة جيّدة بالوالي العثماني الذي أراد اختبار إسلامه، فدفع باثنين من أكابر علماء الحجاز ليعرفا مدى إلمامه وفهمه للقرآن وتعاليمه وكانت النتيجة أن اقتنعوا بصحَّة إسلامه، وقد حدث أن تعرَّض للحُمَى والزَّحَار أثناء إقامته في بلاد الحجاز بسبب الحرارة الشديدة

والمياه، التي أصابته بإرهاق وتغير مزاج.[40] وقد بقي في الحجاز إلى غاية شهر أفريل 1816م، حيث عاد إلى القاهرة وقرَّر الإعداد لرحلة النِّيجر الَّتي تبدو أنَّها لم تكتمل لتأثير مرضه.[41] وفي هذا الظُّروف الطَّارئة والغير متوقَّعة كتب رسالة إلى الدُّكتور "**هاملتون**" سكرتير الجمعيَّة الملكيَّة الإفريقيَّة يقول فيها: " ... لن أقول شيئا الآن عن رحلتي إلى داخل إفريقيا عن طريق الصَّحراء اللّيبية، ولابدَّ من وقت حتَّى أستردَّ صحَّتي وأتمَّ كتابة تقاريري، وآمل حينما افرغ من هذا العمل ألاَّ يكون ما يحول بيني وبين الإسراع في القيام برحلتي الأخيرة، الَّتي أُحسُّ أنَّني الآن مُؤهَّل لها كلَّ التَّأهيل... " [42].

ويبدو أنَّ عودة "**بوركهارت**" إلى القاهرة كانت لتحين الفرصة لملاقاة قوافل تجار العبيد القادمة من فزَّان لمرافقتهم إلى مبتغاه المرسوم سبقا، لكنَّه لم يتمكَّن من ذلك مُغتنما الفُرصة في التَّجوُّل في خليج العقبة وصحراء سيناء بدءاً من 20 أفريل 1816م، ليعيش مع البدو هناك لتكون هذه آخر رحلات "**بوركهارت**" قبل وفاته في القاهرة العام المقبل، والتي عاد إليها منتظرا القافلة المنشودة دون أن يتحقَّق ذلك؟ وقد ذكر هذا من بين جملة الرَّسائل التي كان يبعث بها إلى الجمعيَّة الملكيَّة فيقول: "... **لقد مضى عليّ سنتان لا أفعل سوى التّعليق على رحلاتي السَّابقة أو التَّحدث عن رحلاتي المستقبلة... إني أقدّم وُعوداً بدلاً من أن أُؤَدّي أعمالاً...، ومع ذلك لا أزال غير قادر على التَّحرك من مصر، فلم تصل بعد قافلة من الغرب وقد حال الانتظار بيني وبين القيام بأيّ رحلات أُخرى ..، ولو أنَّ هناك طريقا آخر يصل بي إلى داخل افريقيا غير طريق فزَّان لما تأخّرتُ عن سلوكه، لما أشعر به من ألم من أن يظن بي الكسل أو يُفهم أنَّ روحي قد ضعفت، ... لقد مضى عليّ ثمانية أعوام ولكنَّني بذلتُ كلَّ ما في وسعي لاكتساب المؤهّلات الَّتي تلزمني في مشروعي ....، فإذا فشلت فإنَّ خَلَفي سيحتاج إلى سنوات طويلة يتدرَّب فيها ليَلِجَ أبواب ليبيا بنفس الثّقة التي أستطيع أن ألجها بها الآن...**" [43].

كان مكوث "**بوركهارت**" في القاهرة أواخر حياته فرصة للتَّدوين التَّأليف على مشاهداته هناك، من خلال اتّصاله بالمجتمع العميق في شكل تقريري يشمل الاقتصاد والثَّقافة والسُّلوك والنّظام السّياسي والمظاهر الحضارية؛ من أهرامات ومساجد وقصور ونُظم مدنية ونسيج عمراني وأشكال البداوة وتشكيل الطَّبيعة وما يلحقها من مناخ، في صورة متكاملة نقلها بشغف ولهفة معتبرا ذلك سبيلا ممهّدا لتنفيذ المشروع الذي جاء من أجله. أما في شبه الجزيرة العربيَّة فقد كانت رحلةً أراد من خلالها اكتشاف المقدّس و الرَّمزي (مكَّة و المدينة وشعائر الحجِّ وما تحمله هتين المدينتين من مكانة و قدسيَّة وابتهال لدى عموم الزوَّار والمسلمين في أصقاع العالم)، التي حاول المُزاوجة فيها بين الاكتشاف والتَّجربة وممارسة الاعتناق، على اعتبار أنَّه أصبح مسلماً و أدَّى مناسك الحجِّ على الأقل من النَّاحية السوسيو– نفسية، معاصراً لجملة من الأحداث المهمَّة في المنطقة، والَّتي أثَّرت على أوضاع المشرق والمغارب بظهور الدَّعوة الوهابيَّة ومعاصرته لتطورات الوضع السّياسي و العسكري في شبه الجزيرة العربيَّة. ثمَّ إنَّه حاول تدوين ملاحظاته هناك في الحاضرة كمكَّة والمدينة والطَّائف وجدَّة والبادية من نجد وتخوم الحجاز لتتشكَّل لديه رؤية عن القبيلة وعلاقتها بالسُّلطة، وعن خصوصيَّات

المجتمع الحجازي، وينقل لنا تشكُّل تلك النَّواة الأولى لمشروع دولة في نجد والحجاز. أمَّا في بلاد النُّوبة ومصر فالأمر لا يختلف عن ما نقله من مظاهر البداوة والحضارة عند المجتمعات الَّتي مرَّ بها، ناقلاً كلَّ ما شدَّ انتباهه من مشاهد ومعلومات ومعارف، يمكن أن تفيده في حياته الجديدة التي صادفته وهو يتأهَّب لتنفيذ ما يصبو إليه.

3.5. وفاة جون لويس بوركهارت

تُوفّيَ "جون لويس بوركهارت" جرَّاء معاودة إصابته بالزّحار والحُمَّى في الخامس عشر من أكتوبر عام 1817م بالقاهرة، التي دفن بها بناءًا على وصيَّته ووفق الطَّريقة الإسلاميَّة وقد كُتب على قبره : ‹‹... هنا يرقد الرَّحالة السّويسري "الشَّيخ إبراهيم المهدي" وُلد عام 1199هـ توفّيَ عام 1233هـ، وكُتب بالإنجليزيَّة اسمه الأصلي وولادته ووفاته بالتاريخ الميلادي... ››.[44]

قضى "بوركهارت" دون أن يحقّق ما عزم على القيام به رسميًّا، بتوصية من الدَّوائر الحكوميَّة البريطانيَّة، لكن ما قدَّمه من معرفة علميَّة دقيقة لاتزال جزءًا من تراث العرب والمسلمين، ومرجعا للباحثين في مجال السُّوسيولوجيا والأنثربولوجيا والتَّاريخ والحضارة لأقطار الشَّام ومصر والحجاز وبلاد النُّوبة، بعيون غربيَّة استطاع من خلالها " بوركهارت" أن ينقلها بقلم ثابت وبمنهج المستشرق الحذق والأنثربولوجي والمؤرّخ والسُّوسيولوجي والرَّحَّالة المغامر، ليقف على يوميَّات ومشاهدات لم تتأتَّى لمؤرِّخي العرب والمسلمين في تلك الفترة لأنَّها جاءت من الآخَر الَّذي استطاع أن يتعايش مع مجتمعات لا تمثِّل له أيَّ ارتباط حضاري، يمكن أن يُعيق أو يؤثّر على المنتوج العقلي الَّذي قدَّمه حوله لأنَّ التفاعل مع الظَّواهر والثَّقافات والعادات السُّلوكيَّة ليس سهلا لمن هو خارج النَّسق الحضاري وأصالة الانتماء النَّفسي.

6. التَّعريف بمؤلَّفات جون لويس بوركهارت

1.6. Travels in Seria And The Holy Land رحلات في سوريا والأراضي المقدَّسة

يقع الكتاب في 665 صفحة باللُّغة الانجليزيَّة وهو غير مترجم إلى العربيَّة، يستعرض فيه سنوات من الرّحلة والاكتشاف في أرض الشَّام الموسَّعة، لتطأ قدماه أرض العرب لأول مرَّة، حيث تعتبر بداية الرحلة التي عزم " **بوركهارت**" القيام بها لاكتشاف منبع نهر النّيجر، فقصده الشَّام والأراضي المقدَّسة كان بهدف الأخذ بقسط وافر من العلوم الشَّرعية واللّسان العربي والعادات العربيَّة الَّتي سيتلبس بها، تنفيذا لمهمَّته الشَّاقة الَّتي تستدعي كثيرا من موائمة طبائع وعوائد المجتمع العربي وملائمة المتغيّر الجديد الذي طرأ على جملة حياته ووجدانه وعمقه الدّيني والنَّفسي الَّذي سيمكّنه من اختراق تلك الرّبوع المجهولة، والتي تتطلَّب جَلدَة وصبرا ورباطة جأش لا حدَّ لها.

يحتوي هذا الكتاب ملاحظات "**بوركهارت**" في سوريا والبتراء العربيَّة، وقد أضيف إليها جولته في شبه جزيرة جبل سيناء المتاخم للأراضي المقدَّسة (الحجاز)، عبر البحر الأحمر والطريق الموصل إلى مكَّة والمدينة عبر سوريا.[45]

ويبدو أنَّ الرَّحلات كانت متقطّعة وهو ما انعكس على مضمون الكتاب، فحسب التَّدوين بدأت فصوله بحلوله إلى دمشق قادما من جزيرة مالطة، وتجواله هناك عبر أراضي الشَّام وتخوم العراق وما أوصله إلى الحجاز عبر الطريق البرِّي من دمشق، وما مكثه في أواخر حياته بالقاهرة وجولته في صحراء سيناء انتظاراً لوصول قافلة تجَّار العبيد من فزَّان؛ فهي إذن تدوينات تجمَّعت عبر رسائل كان يرسل بها إلى الجمعيَّة الملكيَّة الإفريقيَّة في لندن.

ويمكن تلخيص محتوى الكتاب في أنَّه استهلَّه بالحديث عن يوميات جولته في دمشق ولبنان ورحلة إلى "**حُوران**" في شتاء 1810م وجولة من حلب إلى دمشق عبر جبل لبنان في فبراير ومارس 1812م، ويوميات رحلة أخرى من دمشق إلى حُوران معرّجا على بحيرة طبريَّة في شهر أفريل وماي 1812م، وجولة من دمشق عبر الجبال من البتراء العربية وصحراء الطَّي إلى القاهرة في صيف 1812م، مختتما الكتاب بيوميَّات جولته في شبه جزيرة جبل سيناء في ربيع 1816م [46]. ويتَّضح أنَّ جولاته كانت من دمشق والقاهرة كمنطلق، وذلك بداية من حلوله هناك من لندن، وانتهاءً بمكوثه في القاهرة قبل وفاته بسنة. وقد ختم الكتاب بملاحق على شكل تقارير وصفيَّة مُهمَّة تضمَّنت الآتي:

- التَّقسيم السِّياسي لسوريا وتغيُّرات حكومة حلب.
- طريق الحجّ من دمشق إلى مكَّة.
- وصف الطريق من البصرة إلى حُوران إلى جبل شمور.
- الطَّريق إلى الشَّرق من قلعة الأحساء.

يمكن القول أنَّ الكتاب في مجمله دراسة تاريخيَّة مونوغرافية، لأنَّها وصفت دقَّة الحياة اليوميَّة القائمة على المشاهدات والاتّصال بالأفراد والتجمعات الحضرية والرّيفية في شكل تقريري، يُردفه بوصف الجغرافيا والمجال من أودية وجبال وأنهار ومعابر بريَّة وبحريَّة، ناقلاً تفاعل الإنسان مع الثّقل الحضاري للربوع العربية، محاولا بذلك الانتقال من الحاضرة إلى البادية كمنطلق بحثي يكتشف من خلاله التَّنوع وتبدل الذّهنيات والممارسات الثَّقافيَّة والاجتماعيَّة، كما أخذت جملة المعارف المقدمة طابعاً دينياً بحديثه عن المعالم الدّينيَّة كقبور الأنبياء والمزارات، والتَّواجد المسيحي واليهودي القديم في المناطق التي يرى بأنَّها تشكّل رباطاً ووصلا ثقافياً مع الماضي وتجلّيات ذلك على طبيعة المجتمع العربي الدّينية، التي تنوَّعت بين المسيحيَّة والإسلام وحتَّى بقايا الآثار اليهوديَّة، ضف إلى ذلك الجانب الفنّي الذي نقله كالفنّ النّبطي في البتراء وما لاحظه عبر ساكنة البادية هناك من لا مبالاة بقيمة ذلك الكنز الحضاري العالمي، لذلك نجده أفرَدَ لكلّ منطقة زارها عنواناً ووصفاً دقيقاً بتفاعل المنبهر والمتعجّب.

2.6. رحلات بوركهارت في بلاد النُّوبة والسُّودان

يقع الكتاب في 292 صفحة وهو يمثّل المرحلة الثانية من رحلة بوركهارت الاستشراقية التي انتقل عبرها من بلاد النُّوبة إلى جدَّة بالجزيرة العربيَّة، ومترجم من طرف "**فؤاد اندراوس**" من إصدارات المشروع القومي

للتَّرجمة بالقاهرة. جاء في الرّسالة التي كتبها "**بوركهارت**" في 13 نوفمبر 1812م إلى الدُّكتور "**هاملتون**" سكرتير الجمعيَّة الإفريقيَّة يعبّر فيها عن رغبته القيام برحلة برّية إلى مصر العليا وبلاد النُّوبة بمجرد أن تسمح حالة النَّهر بذلك، وأن نيَّته أن يتجاوز الأنهار الثَّلاث وهي منطقة غنيَّة بالمعابد والآثار القديمة الَّتي تشبه آثار الأقصر وجزيرة فيلة ولم يزرها أحد من قبل[47]. عزم "**بوركهارت**" القيام بهذه الرّحلة الشَّاقة والغامضة لإثراء معارفه، واطّلاعه على بلاد الصَّحراء القريبة من ليبيا اتّجاه طريق تجَّار العبيد، حيث ينوي مرافقتهم لاكتشاف نهر النّيجر. وقد وقعت رحلته في بلاد النُّوبة في مرحلتين الأولى انطلقت من القاهرة في 11 جانفي 1813م إلى غاية عودته في 2 ماي ليرسل رسالة إلى الجمعيَّة والرّحلة الثَّانية بدأت في 2 مارس 1814م، حيث قادته إلى سواكن ومنها عبر البحر الأحمر إلى جدَّة وشبه الجزيرة العربيَّة، الَّتي أرسل منها خطاباً للسّكرتير مؤرخاً في 8 أوت 1814م يخبره بوصوله هناك[48].

تكتسي رحلة "**بوركهارت**" هذه قيمة علميَّة فريدة لأنَّها نقلت حياة المجتمع النُّوبي في تلك الفترة ويومياته بصورة ذلك التَّمازج بين الحضور العربي الإسلامي والمسيحي والوثني، وكلَّ مخلفاته الماديَّة من آثار وقصور ومعابد ومساجد وعادات وتقاليد، تعبّر عن تعايش حضارات وقيم اجتماعية إفريقيَّة وعربيَّة.

3.6. العادات والتَّقاليد المصريَّة من الأمثال الشَّعبيَّة في عهد محمَّد علي

يقع الكتاب في 267 صفحة وترجمة "**إبراهيم أحمد شعلان**"، حاول فيه المؤلّف نقل يوميَّاته في مدينة القاهرة الَّتي أخذت قسطا كبيرا من محطَّات جولته في البلاد العربيَّة، إذ يعتبر الكتاب مسح ثقافي للأشكال التَّعبيرية المنطوقة محليا في ربوع مصر، وتعبيرا عن تجارب الإنسان وتفاعله مع قضاياه وشؤونه اليوميَّة والتي رأى فيها "**بوركهارت**" فضاءًا تعبيرياً لصورة الحياة الاجتماعية، لما تمثّله من دلالات الأنثروبولوجيا الثَّقافية وما تحتويه من عناصر التَّراكم الحضاري والتَّعاقب الثقافي في مصر، محاولا نقل توصيفاتها ودلالتها وطبيعتها المعرفيَّة وتأثيراتها على مختلف السُّلوكات لدى الإنسان المصري خاصَّة، ومدى ارتباط ذلك بالثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة وباقي مفاصل مجتمعاتها عامة.

حسب مقدمة "**بوركهارت**" المؤرَّخة في مارس 1817م، فإنَّ هذا الكتاب هو ترجمة لمخطوط للأمثال الشَّعبيَّة الرَّائجة في مصر في القرن الثامن عشر للأديب "**شرف الدّين بن أسد**"، وقد عثر عليها مُهملة في مكتبة أحد الشُّيوخ المعروفين في القاهرة، وأنَّه حرص على نقلها والقيام بإسقاطات إجرائيَّة عليها وعلى مدى تجاوب المجتمع المصري مع مضمونها ودلالتها منقولة بالعامّية المصريَّة والفصحى، عبر تفسير جملة الأمثال وإعطاء الشُّروحات المناسبة لها في حدود تواصله مع مختلف طبقات المجتمع المصري عوامًّا ومثقَّفين، كما لم يُخف انبهاره بتلك الحكم والتَّعابير الشَّعبية المتوارثة معتبرا إيَّاها من توليدات المعرفة والفطنة، وأنَّها "تبين كيف تحكم الجماهير على الرجال والأشياء، والَّتي رأى بأنَّ بعضها قد فقد بريق شيوعه في القرن التَّاسع عشر، على اعتبار أنَّها وليدة القرن السَّابق له، كما أنَّ "**بوركهارت**" نقل بكلّ تواضع محاولاته لتقريب المعنى باعتبارها أمثال دينيَّة وحكم مأثورة عن القدماء.[49]

هنا نلتمس ذلك الارتباط الوثيق بين وجود "**بوركهارت**" في القاهرة والعلاقة الوجدانيَّة التي نشأت بينه وبين كل مؤثّرات المجتمع القاهري، لذلك حاول عبر هذه الدّراسة الاستشراقيَّة نقل واقع المصريين عبر مجموعة أمثال وحكم تحمل جملة من العادات السُّلوكية الرَّائجة، عبر الإرث الثقافي المعنوي الَّذي وقع عليه صدفة فحاول بذلك بناء الصُّورة وتمثيلاتها الماديَّة في الواقع المعاش يوميا، وقد ساعده في ذلك المكانة المميَّزة الَّتي حضي بها لدى "**محمد علي باشا**" وابنه "**إبراهيم**" وتوصيَّاتهما بحسن وفادته أينما حلَّ وارتحل.

4.6. ترحال في الجزيرة العربيَّة – يتضمَّن تاريخ مناطق الحجاز المقدَّسة عند المسلمين

الكتاب ترجمه وقدَّمه صبري "**محمد حسن**"، ويقع الجزء الأول في 294 صفحة والجزء الثَّاني في 235 صفحة. شمل الجزء الأوَّل تفاصيل جولات "**بوركهارت**"، منذ وصوله إلى جدَّة وتنقُّله إلى الطَّائف، مرورا بمكَّة ناقلا مشاهداته في الطَّريق ويوميَّات جولاته في الإقامة، واصفا بيت الله الحرام مبديا ملاحظاته على السُّكان والمناخ والأمراض المنتشرة في تلك الفترة. أمَّا الجزء الثَّاني فيقع في 235 صفحة، تضمَّن مشاهداته حول مناسك الحجّ، والرّحلة من مكَّة إلى المدينة واصفاً السُّكان والطَّبيعة والأحوال الصحيَّة، ثمَّ عروجه إلى ينبع في طريقه إلى القاهرة. مذيّلا الكتاب بملاحق قيّمة تتعلق بتخوم مكَّة من بوادي ووديان بساتين ومناخ، كما تتبَّع المسالك البريَّة لوفود الحجيج وبعض الملاحظات الاجتماعية والثَّقافيَّة المصاحبة لشعيرة الحجّ، دون أن يغفل أحداث الحركة الوهابيَّة في نجد وانعكاساتها على الظُّروف السّياسيَّة والأمنيَّة وتجليَّاتها في علاقة السُّكَّان بالجيش الإنكشاري وتأثره بسياسة محمد علي في الحجاز.

يمكن القول أنَّ ما قدَّمه في هذا الكتاب يعتبر سبقاً علمياً ومعرفياً صادقاً، لما عرفه من التزام المستكشف باستخدام التقصّي بكل أنواعه وصنوفه، متميّزا على سابقيه من الغربيين؛ فقد قدَّم لنا وصفاً موسوعياً لكلّ من جدَّة ومكَّة تميز بالتأنّي والفحص بتقديم روايته الخاصة لمختلف مناحي الحياة وخاصَّة الدّينية منها، فأصبحت تمثّل هذه النَّمرة إرثا معرفيًّا مناسبا ودقيقا لمن جاء بعده، بالاقتباس عنه لمدّة أربعين سنة على غرار "**بيرتون** "، الّذي لم يجد ما يضيف إلى الوصف الذي قدمه للمدينة[50]. يعتبر هذا الكتاب دليلا طبوغرافيا وموسوعة ثقافيَّة واجتماعيَّة وحتى اقتصاديَّة وسياسيَّة للباحثين في تاريخ الجزيرة العربيَّة مع مطلع القرن التَّاسع عشر، لأنَّ ناقلها تمكَّن من التَّدقيق والتَّفصيل في مختلف جوانب حياة السُّكان ومدى التَّأثير والتَّأثُر بالأحداث الحاصلة في تلك الفترة.

5.6. ملاحظات عن البدو والوهابيِّين جرى جمعها خلال التّجوال في الشَّرق

الكتاب ترجمه "**صبري محمد حسن**" وهو في جزأين الأوَّل يقع في 148صفحة والثَّاني في 234 صفحة، في جزأه الأوَّل وقف "**بوركهارت**" على هندسة الغذاء والطعام لدى العرب وخاصة البدو الوهابيّين في شبه الجزيرة العربيَّة كما أسماهم، من حيث عرَّج على مختلف مظاهر الثَّقافة من مظهر لباس وسكن وطرائق عيش، وصنعة وثروة حيوانيَّة، وتنوُّع الفنون من شعر وغناء ونثر، وطبائع وسلوكات من تعبُّد وزواج وأخلاق وفنون حرب وإغارة وأحوال صحَّة وتعليم وغيرها في صورة الدّراسة المونوغرافية الموسَّعة، منها ما شاهده ومنها ما

استقاه من مظانّ تراثيَّة وقع عليها أثناء تجواله هناك. وهو ما يجعل هذه المعرفة جديدة لدينا، لأنَّها تنقل صورا لم نألفها لدى أدبيَّاتنا العربيَّة في تلك الفترة .أمَّا في الجزء الثَّاني من الكتاب فقد نقل "بوركهارت" مشاهداته عن البدو، مفصّلا في مناطق انتشارها بقبائلها وبطونها في جبل شمّر والقصيم وأجزاء من نجد وضواحي مكَّة والمدينة وتُهامة والطّائف، مفردا الجزء الغالب لأحداث سياسيَّة وعسكريَّة مفصليَّة في تاريخ شبه الجزيرة العربيَّة كان معاصراً لها وشاهدا عيانا لكثير من فصولها، حيث عرفت المنطقة ظهور الدَّعوة الوهابيَّة وتحالفها مع آل سعود، لتكوين نواة حكم جديدة تقضي على السَّيطرة العثمانيَّة على الوضع التي استمرت لقرون عديدة، فقد نقل لنا مظاهر الحرب والمواجهات العسكريَّة بين قوات التحالف الجديد والحامية التركية بقيادة "**محمد علي باشا**" وابنه "**ابراهيم**". شكَّل هذا الكتاب مصدرا هاماً لأنَّه تميَّز بثراء معرفي وتنوُّع ميادين بحثه، محاولا صاحبه نقل تفاصيل مهمَّة في تاريخ الحجاز وشبه الجزيرة العربيَّة في تلك الفترة الحرجة من تاريخه، والَّتي لا تزال مورداً أكاديمياً للباحثين في التَّاريخ السّياسي والعسكري للمنطقة مطلع القرن التَّاسع عشر.

6.6. مواد لتاريخ الوهابيِّين:

يعتبر هذا الكتاب المترجم من الباحث "**عبد الله الصَّالح العثيمين**" والذي يقع في 212 صفحة حوصلة لتاريخ أحداث وتطورات الدَّولة السُّعودية الأولى، كما يمثل إعادة واستفاضة لما تضمَّنه الجزء الأوَّل من كتابه " **ترحال في الجزيرة العربيَّة**"، من أحداث وحروب الوهابيين مع "**محمد علي**" وتعريف بشخصية المؤسّس "**سعود**" وأسرته، والحكومة الوهابيَّة ونظام العدالة ومصادر الدَّخل والشؤون العسكرية للدَّولة السُّعودية الأولى، كما تضمَّن الكتاب ملحقان مهمَّان حول مراسلات "**محمد علي**" و"**عبد الله بن سعود**". وتكتسي أهميَّة هذا الكتاب في أنَّه مختص في قضايا وأحداث الحركة الوهابيَّة في دورها الأوَّل (الدَّولة السّعودية الأولى)، فهو يعتبر مرجعا لكل الدَّارسين لتلك الفترة.

7.اثنوغرافيا الفضاء الوهَّابي في اسطوغرافيا جون لويس بوركهارت

1.7. الحضور الوهَّابي في مكَّة والمدينة

وجَّه "**بوركهارت**" جهوده الاستشراقيَّة نحو الجزيرة العربيَّة وفق منهج التقصّي الشَّامل والدَّقيق، فراح ينقل واقع المجتمع وإثنياته وفعالياته الاجتماعيَّة والثقافيَّة والاقتصاديَّة والسّياسيَّة عبر آلية الوصف المتميّز للظَّواهر الَّتي عاينها ووقف عليها بذاته، لتتشكَّل لديه مقاربة سوسيوتاريخية جعلت من إنتاجه العلمي يحمل رؤى الاستشراق ومخرجات الرّحلة بذكر الظَّاهرة وتجليَّاتها العقليَّة والوجدانيَّة وسردها بكل ما يرافقها من محيط ومجال تفاعلها في الماضي والحاضر، فكلّ نسق معرفي ذكره في كتاباته يحمل حفريَّات الإثنوغرافيا النَّقدية ويؤصل لها تاريخياً ودينياً وأثرياً ليسوّقها لنا في قالب سردي مشوّق وماتع. عمل أنصار الدَّعوة الوهابيَّة على تطبيق تصويباتهم الشَّرعية على المقدَّسات والرُّموز الدّينية فمن بين التَّغيُّرات الَّتي أحدثوها منع زيارة قبر النَّبي ﷺ أو الوقوف أمام الحجرة الشَّريفة والدُّعاء بطلب شفاعته وذلك لاعتبارات عديدة، حيث يقول "**بوركهارت**"

في هذا الشَّأن : "...**لماّ كان محمد ﷺ مجرَّد إنسان فإنَّ ذلك يعني أنَّ قبره عندهم لا يستحقُّ أيَّ قدر من التَّبجيل، يضاف إلى ذلك أن المذهب الوهابي الدّيني صارم ومتشدد، الأمر الَّذي أغرى سعود بنقل كنوز الحجرة التي ظنُّوا أنَّها لا يجدر بها ولا تصلح لتزيين أيَّ قبر من القبور، وترك سعود القبر وحده دون مساس، ولم يُزِل الغطاء القُماشي المقصَّب على القبر، ولم يُزِل السّتارة الَّتي تَلفُّ القبر...، واحترم قبر ستّنا فاطمة بالقدر نفسه، لكنَّه حطَّم وبلا استثناء بنايات المقبرة العامَّة كلّها الَّتي دفن فيها الكثير من الصَّحابة والأولياء، كما دمَّر شواهد القبور وأحجارها الزّينية...**"[51].

بهدف تمويل العمليَّات العسكريَّة وتوفير المؤونة والمال لنواة الدّولة السُّعودية الأولى فرض "**سعود**" الضَّرائب على بساتين المدينة المنوَّرة التي كانت تتمتع بِحريَّة ضريبية وإعفاء من ضريبة الأرض، وهو ما وقف عليه "**بوركهارت**" حين يقول: "**... نرى أنَّ الوهابيِّين قاموا بعد استيلائهم على المدينة المنوَّرة مباشرة بفرض ضريبة على الأرض طبقا للقوانين المعمول بها فيما بينهم، وذلك بتقييم الحقول لا باستعمال انتاجها من القمح، وإنَّما طبقا لإنتاجها من التَّمر وعدد أشجار النَّخيل في كل حقل وبما يتناسب مع خصوبة التُّربة، ومن كل اردب من التَّمر كان جُباة الضَّرائب الوهابيُّون يأخذون حصَّة نوعية أو نقدية طبقا للسِّعر السَّائد عند التَّحصيل، مما تسبَّب في كراهية أهل المدينة للوهَّابيِّين عكس أهل مكَّة لأنَّهم لم تكن لديهم حقول أو مزارع...** "[52]. نقف هنا على ملاحظة مفادها أن أهل مكَّة اعتمدوا منذ القدم على ما تدرُّه التِّجارة عليهم من ربح وفير وخاصَّة أيَّام الحجِّ وتوافد الزوَّار من كل أصقاع العالم الاسلامي، فهم لا يعتمدون على الزِّراعة تماما، بينما أهل المدينة فتجارتهم ليست بالقدر الَّذي يحصله أهل مكَّة.

ومن مظاهر تشدُّد الحكم الوهَّابي الَّتي ينقلها لنا "بوركهارت" "...**إهمال الواجبات الدِّينية يعرِّض الشَّخص لعقوبات شديدة ...فعندما استولى "سعود" على المدينة المنوَّرة أمر بعض رجاله بعد الانتهاء من الصَّلاة في المسجد بتلاوة أسماء سكَّان المدينة البالغين الذين تعيَّن على كل واحد منهم أن يرد مؤكِّدا وجوده بعد سماع اسمه، ثمَّ أمرهم بعد ذلك بحضور الصَّلاة بصورة منتظمة وإذا ما تغيب أحدهم مرتين أو ثلاث مرات قام "سعود" بإرسال رجاله لضرب الرَّجل في بيته في مكَّة، وعندما كان يحين موعد الصَّلاة كان "سعود" يُطلِق رجاله على شكل دوريات في الشَّوارع وكل واحد منهم ممسكاً في يده عصا غليظة ويروحون يسوقون السُّكَّان بالقوَّة إلى المساجد؛ صحيح أن هذا إجراء قاس لكن مبرِّره عدم تديُّن المكيِّين...** "[53]. ينقل لنا "**بوركهارت**" تأثيرات حروب الدَّولة السُّعوديَّة الأولى على الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة لساكنة المدينة المنوَّرة وخصوصا في قطع التَّموين والإمداد الغذائي والتِّجاري عليهما عندما يقول: "... **هذه القوافل كلُّها كان يجري وقفها وتعطيلها، وقد بلغني أنَّ تجارة نقل التَّموينات من ينبع كانت قد توقَّفت سنوات عدَّة عقب دخول الوهابيِّين للمدينة المنوَّرة التي أراد رئيسها "سعود" محاباة رعاياه من أهل نجد، كما أنَّ المدينة المنوَّرة في ذات الوقت كانت تحصل على بعض تموياناتها من نجد من ناحية والبعض الآخر من حقولها الخاصة، كانت السِّلع التَّموينيَّة في ذلك الوقت شحيحة وغالية، تماما الأمر الذي حدا بالطَّبقات الفقيرة إلى الاعتماد في**

حياتهم على التَّمر بصفة رئيسيَّة وعلى نوع من الخبز الشَّعبي الَّذي يصنعونه من خبز الشَّعير..."[54] .

نستشف الإصرار والرَّغبة الشَّديدة لمؤسِّس الدَّولة النَّاشئة في إثبات وجودها في الأمر الواقع، عندما لجأ إلى قطع الصِّلات التِّجارية مع الشَّام والعراق ومع كل من لم يتقبَّل دعوته الجديدة، حيث يصنِّف كل معارضيه ضمن العدوّ.

وهو ما ذكره "**بوركهارت**" في الآتي: "**... كان الذَّنبُ الَّذي يعاقب عليه "سعود" بصفة دائمة يتمثَّل في اتِّصال أتباعه بأعدائه من خلف ظهره، مع ظهور المذهب الوهَّابي كانت الأوامر القاطعة تقضي بوقف الاتِّصال بكل أنواعه بين الوهابيين ومخالفيهم الذين لم يقتنعوا بالمذهب الجديد، وأنَّ السَّيف وحده هو الَّذي يجب أن يستعمل في الحوار مع هذه القبائل، ولماَّ كان سكَّان نجد معتادين على زيارة المدينة المنوَّرة ودمشق وبغداد والبلدان المجاورة لهم، فقد كانوا يخافون دوما الأوامر الَّتي تقلِّل من اختلاطهم بمخالفيهم...، ولم يسمح "سعود" مطلقا لأحد من أعرابه بالإتِّجار مع سوريا أو بغداد إلا بعد عام 1810م... "**[55].

حسب ما استقاه "**بوركهارت**" من مكوثه في مكَّة التمس أهل مكَّة في سيطرة الوهَّابيَّة على الوضع منظومة قيميَّة جديدة لم يعهدوها في عهد الأتراك حيث يذكر: " **...لا يزال المكيُّون يذكرون بالفضل ذلك النِّظام المجتمعي الذي كانت قوات "سعود" تراعيه وبخاصة بعد استيلائه على المدينة، وهذا الحرص البالغ نراه أيضا في سعود عندما كان يراقب جنوده أثناء الحملات التي يقوم بها، و من يحصل من "سعود" على كلمة "أمان" يصبح في مأمن تماما من سوء تصرُّف الجنود، وقد ورد مثل عن حسن نيَّة الوهابيِّين وصدق عقيدتهم وهو أنَّ بعضا منهم كانوا يشاهدون في كثير من الأحيان داخل الحرم المكِّي وهم يبحثون عن أصحاب بعض الأشياء المفقودة الَّتي جرى العثور عليها ليعيدوها إلى أصحابها ...**"[56].

2.7. جدليَّة منصب شريف مكَّة في الصِّراع الوهَّابي العثماني

لعب منصب شريف مكَّة دورا محورياً في الصِّراع الوهَّابي العثماني لما يكتسيه من رمزيَّة دينيَّة لدى المكيِّين خصوصاً والمسلمين عموما، فشرعيَّة هذه الشَّخصية مستمدَّة من الثِّقل التَّاريخي للأشراف، وتأثيرات ممارساته السُّلطوية في المجتمع المكِّي من جهة، وضمن منظومة الحكم العثمانيَّة وتداخلاتها السُّلطانيَّة من جهة أخرى، وهو ما حدى بطرفَي الصِّراع إلى محاولة إيجاد توازنات تضمن بقاء ولاء شريف مكَّة له من أجل التَّمكين على أرض الواقع، وتهيئة الظُّروف للسَّيطرة النِّهائيَّة على مكَّة وضواحيها التي تشكِّل حكومة افتراضية مقدَّسة لشريف مكَّة. من النَّاحية التَّاريخية ظلَّ أشراف الحجاز حتى منتصف القرن الرَّابع الهجري ليس لهم شيء من الحكم ولم يكن لديهم ما يميِّزهم عن بقية السُّكَّان سوى مكانتهم العالية النَّاشئة عند انتسابهم إلى النَّبي محمد ﷺ وفي عام 969م استطاع أحد الأشراف الحسينيِّين، وهو "**جعفر بن الحسن**" من سلالة "**موسى الجُون**" أن يؤسِّس له نوعا من الإمارة في مكَّة أطلق عليها " **شرافة مكَّة**" وهي الشَّرافة التي استمرَّت لهم حتى عام 1925م، عندما قضى عليها "**ابن سعود**" [57]. بظهور الدَّعوة الوهَّابيَّة في نجد والحجاز وتعاظم تحدِّياتها في ظلِّ الحكم العثماني، أقحم شريف مكَّة في دائرة الصِّراع بينهما، ويتحدث "**بوركهارت**" في الجزء الأوَّل من

كتابه "**ترحال في الجزيرة العربية**" عن الشَّرافة وشريف مكَّة ويعطي تأصيلاً تاريخياً لهذه المؤسَّسة الَّتي أثَّرت بشكل أو بآخر في الصِّراع بين الوهَّابيِّين والسُّلطة العثمانيَّة في الحجاز.

يذكر "**بوركهارت**" بأنَّه لم يلتق بالأشراف كثيرا إلاَّ أنَّه يصف عوائدهم وحياتهم اليوميَّة وسلوكات حكمهم وأحداث تأثُّرهم بتغيُّر الأحوال في الجزيرة العربيَّة، حيث يتحدَّث عن وصول "**غالب الشَّريف**" إلى شرافة مكَّة فيقول: "**... العام 1785م أو 1786م بعد وفاة "الشَّريف سرور" خلفه "عبد المعين" أحد إخوانه لمدَّة أربع أو خمس سنوات، في حين قام أخوه غالب الأصغر منه سناً مستفيدا من مهارته في التَّآمر ومستفيدا أيضا من ذيوع شجاعته وقدرته على الفهم، وأقبل على تجريد شقيقه من سلطته وأجبره على التَّقاعد...**".[58]

بعد تعيين "**محمد علي باشا**" واليا على مصر في 1805م، كانت ضمن أولويَّاته القضاء على تمرُّد الوهَّابيِّين و"**سعود**" في الحجاز وهو ما جعله يتأَّهب لهذه المهمَّة الصَّعبة في ربوع تتحكمها توازنات الطَّبيعة الصَّحراوية الوعرة وشراسة البدو الوهَّابيِّين الَّذين عزموا على عدم التَّفريط في دورهم الحضاري الجديد في بلاد الحجاز، وبطبيعة الحال ستنعكس العمليات الحربيَّة لمحمَّد علي على منصب الشَّرافة بالإيجاب والسلب، ويتحدَّث "**بوركهارت**" عن موقف "**الشَّريف غالب**" من استعدادات محمد علي العسكريَّة فيقول: "**...عندما سمع "الشَّريف غالب" عن تلك الاستعدادات الكبيرة الَّتي كانت تتَّخذ لغزو الحجاز، وعندما عرف أيضا أنَّ "محمد علي" لديه موارد أكبر من موارد أيَّ باشا من الباشوات الآخرين الَّذين حاولوا دخول تلك البلاد عنوة، رأى من مصلحته الدُّخول في مراسلات مع "محمد علي" معتذرا عن اعتناقه المذهب الوهَّابي بسبب الظُّروف القاهرة الَّتي اضطرَّته لذلك، وأنَّه على استعداد للتَّخلص من ذلك النَّير مع مجيء أوَّل جيش تركي محترم إلى شواطئ الحجاز، وأضاف "الشَّريف غالب" في ثنايا تلك المراسلات معلومات كثيرة عن الوضع الحقيقي للوهَّابيِّين وتوزيع قوَّاتهم وأفضل الأساليب للهجوم عليهم ...**" [59] .

يتَّضح من كلام "**بوركهارت**" أنَّ "الشَّريف غالب" خاف من عواقب الوقوف مع الوهَّابيِّين وتداعيات ذلك عليه من حيث فقدانه المنصب أو احتمال مصرعه، كما بدى شبه متأكِّد من تحقيق "**محمد علي**" لنصر ساحق على الدَّولة النَّاشئة. وترجم موقف "**الشَّريف غالب**" حين همَّت جيوش "**مصطفى بك**" صهر "**محمد علي**" باشا الدُّخول إلى مكَّة بعد الاستيلاء على المدينة المنوَّرة، حيث أورد "**بوركهارت**" تفاصيل بقوله: "**..خاف"الشريف غالب" وارتاع من سقوط المدينة المنوَّرة، وربما كان الرَّجل يرغب في نقض ولائه للوهَّابيِّين ولذلك آثر العثمانيِّين وأرسل رُسلا إلى "مصطفى بك" يدعوه إلى دخول مدنه، وهنا جرى توجيه بضع مئات من الجنود ليذهبوا إلى جدَّة في حين تقدَّمت القوَّات الرَّئيسيَّة اتِّجاه مكَّة، الَّتي كان "عثمان المضايفة" قائدا عليها من قبل الوهَّابيِّين لكنَّ الرَّجل وجد نفسه في موقف لا يسمح له بالدُّخول في معركة مع الأتراك، انظمَّ "الشَّريف غالب" إلى قُوَّات "مصطفى بك" الَّتي دخلت مكَّة في جانفي 1813م، ومعه أكثر من ألف من الأعراب والعبيد والسُّود، وبعد أسبوعين من ذلك دخل "الشريف غالب" مع "مصطفى بك" مدينة الطَّائف الَّتي احتلَّها الوهَّابيُّون طوال عشر سنوات...** "[60] .

ويروي "**جون بوركهارت**" أحداث أسر "**الشَّريف غالب**" ونفيه، بعد أن اكتشف تآمره عليه وخيانته لمحمَّد علي يمكن تلخيصها في الآتي: "...**بدأت العلاقات تتوتَّر بين "الشَّريف غالب" و"محمد علي" بعد أن وفد هذا الأخير إلى مكَّة وأمره استعمال نفوذه لإقناع عرب الحجاز على تقديم أكبر عدد من الإبل له ودعمه...لكنه تماطل في ذلك واشتكى من عدم وصول الرُّسوم الجمركيَّة من جدَّة الَّتي اتَّفق سلفا معه بأخذ حصَّة النِّصف ...فراح كل طرف يتَّهم الآخر بالكيد والتَّآمر عليه...وبعد أن تلقَّى "محمد علي" فرمانا من السُّلطان يخوِّل له سلطة التَّصرُّف معه وفقا لما يراه مناسباً...، لكنَّ هذا الأمر لم يكن سهلا... تحصَّن "الشريف غالب" في قلعة حصينة في مكَّة...، مما دعى بتدبير مكيدة بخبرته في التَّآمر والكيد والوقيعة، حيث أمر ابنه "طوسون باشا" بالقدوم إلى مكَّة من جدَّة وبطبيعة الحال جرت العادة استقباله من "شريف غالب" في إقامته ...، فلما وفد إليه مع جنوده استقبله ودار بينهما حوار ولماَّ هم بالخروج اعتقله وأجبره على حثِّ مرافقيه بعدم المقاومة والانصراف...و تمَّ إرساله إلى القاهرة عبر جدَّة ومنها إلى "سالونيكا" حيث توفِّي هناك بسبب الطَّاعون العام 1816م...**"[61] . كان لأحداث أسر "**شريف غالب**" تداعيات على شيوخ القبائل البدويَّة الحجازيَّة والمكيِّين عموما والعائلات الشَّريفة، حيث هربوا من مكة وعادو إلى "**التربة**" التي تحصَّن بها الوهَّابيُّون. يبدو أنَّ رهان "**محمد علي**" على دعم "**الشريف غالب**" كان خاطئا، لأنَّ هذا الأخير وقع في أمر محرج، فمن جهة أفقده الحكم الوهَّابي بعضا من امتيازاته وأبَّهته وأجبروه على التَّواضع والحد من مظاهر الهالة والتَّقديس الَّتي ورثها عن سابقيه، والأكثر من ذلك أنَّ الوهَّابيين لماَّ استولوا على الحجاز العام 1801م عيَّنوا "**عثمان المضايفة**" نسيبه شيخا لقبائل الطَّائف ومكَّة، مماَّ رأى فيه مزاحمة وتهديد لمنصبه، وتقزيم لمكانته الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة، ومن جهة أخرى كان يعلم أنَّ بطش العثمانيِّين أوقع قساوة عليه وعلى إمارته من بني جلدته الوهَّابيِّين، فاختار وجازف بالوقوف في وجه سلطة "**محمد علي باشا**" العسكريَّة التي تحمل كثيرا من المطالبات الصَّعبة التَّحقيق، والَّتي من بينها فقط ضمان الولاء له والطاعة المتناهية في ما كان يعزم "**محمد علي**" القيام به؛ وهو تجميع القوَّات ودعم القبائل البدويَّة الَّتي يستطيع "**شريف غالب**" السَّيطرة على سلوكاتها السِّياسيَّة والعسكريَّة بسهولة، وهو ما لم يقدِّمه للقوَّات العثمانيَّة الَّتي كانت تتأهَّب للقضاء على الحكم الوهَّابي في باقي مناطق نفوذه في نجد وتخوم جبال الحجاز الَّتي لازالت عصيَّة عليه. وبالنِّسبة لمصير شرافة مكة فيما بعد فقد عيَّن محمد علي باشا محافظا لمكَّة وهو "**يحيى**"، وهو من السُّلالة الشَّريفة غريم "**الشَّريف غالب**" حيث أوعز "**بوركهارت**" هذا التَّعيين بأنَّه لم يكن صاحب موهبة أو صيت عال، وذلك مقابل راتبا شهرياً مقداره ثلاثون كيساً مماَّ حذا به بأن يصبح مجرَّد موظَّف من موظَّفي محمد علي باشا[62]. ويبدو أنَّه بهذا الإجراء كان يهدف إلى الحدِّ من نفوذ سلطة شريف مكَّة، وضمان ولائه وتبعيته له في مهمَّته القادمة.

3.7. تصوُّرات مشروع الدَّولة الدِّينيَّة النَّاشئة

أورد لنا "**بوركهارت**" مجموعة مبادئ دينيَّة للدَّولة السُّعوديَّة الأولى الَّتي تحالف فيها الفكر الجديد، وجملة القواعد الفقهيَّة والعقديَّة الموروثة عن الإمام " **محمد بن عبد الوهَّاب**" مع سلطة وإرادة وطموحات الشَّيخ "**سعود**"

في التَّأسيس لإمارة سياسيَّة تقلب موازين القوى لصالح الحكم المحلِّي في شبه الجزيرة العربيَّة، مستغلِّين ظروف سوء حكم العثمانيِّين للمنطقة وممارساتهم الَّتي تصل في بعض الأحيان إلى العنصرية المقيتة، مع قوَّة التَّجاوب الَّذي وجده من كبرى القبائل العربيَّة في حواضر الحجاز، وبشكل واسع البدويَّة منها وتطلُّعاتها لأخذ مكانتها العتيقة في تسيير شؤونها واستغلال مواردها و خيراتها لصالحها بعيدا عن سطوة العثمانيِّين، حيث كانوا كثيرا ما يشتكون من ممارساتهم التَّسلُّطية والتي رأوا فيها نوعا من عدم الشَّرعيَّة والمشروعيَّة، وخاصَّة في ظلِّ اختلاف التَّكوين النَّفسي والحضاري المميِّز لكلِّ طرف، وهو ما جعل هذه الدَّولة تعتمد عل الإرث الدِّيني للدَّعوة الإسلاميَّة المحمَّدية ورمزيَّة مكَّة والمدينة والحجاز عموما في تسويغ مبرِّراتها الشَّرعية والواقعيَّة لأتْباعها لإيجاد التَّقبُّل النَّفسي والدَّعم المادِّي لمجابهة تحدِّي الرَّفض من الحكَّام العثمانيِّين وبعض من المجتمع المستفيد في بقاء نجد والحجاز على سيطرة العثمانيِّين.

يتحدَّث "**بوركهارت**" عن النُّظم الاقتصادية وبعض الممارسات العقديَّة بعض استقاها من مشاهداته اليوميَّة ومشاركته في بعض الشَّعائر ووقوفه على كثير من التَّعاملات أثناء تواجده بالحجاز فيقول: "...**بخصوص ايرادات ودخل الدَّولة فقد تأسَّست على نظام مماثل للنِّظام الَّذي كان سائدا في زمن الرَّسول محمد ﷺ حيث تمثَّلت في : أوَّلا: خمس الغنيمة الَّتي يجري الاستيلاء عليها من المخالفين في الحروب هذه النِّسبة يجب تخصيصها للشَّيخ (الرَّئيس) سواء أكان هو أو أحد ضبَّاطه حاضرا في تلك الحملة... ثانيا: الصَّدقات حيث كان "سعود" يقسِّم الزَّكاة الَّتي يجمعها من رعاياه إلى قسمين القسم الَّذي يجيء من البدو، وكان يدخل إلى خزانته الخاصَّة لكن الزَّكاة التي كانت تأتي من المدن ومن الفلاَّحين كانت تذهب إلى الخزانة العامَّة (بيت المال). ثالثا: القسم الأكبر من المداخيل الوهَّابيَّة يأتي من ممتلكات سعود الخاصة حيث وضع قاعدة مفادها أنَّه إذا ما أعلنت منطقة من المناطق أو مدينة من المدن تمرُّدها للمرَّة الأولى قام "سعود" بتخريبها، وإذا ما حدث التَّمرُّد مرَّة ثانية جرى سلب المدينة ونهبها ومصادرة ممتلكاتها وأراضيها وضمِّها إلى الخزانة العامَّة... رابعا: الغرامات الَّتي يجري تحصيلها نتيجة الخروج عن الشَّرع جريمة العصيان يجري عليها العقاب بغرامة وهناك معيار ثابت في المحاكم الوهَّابيَّة، يقضي بفرض غرامة مالية على من يتَّهم إنسانا بتهمة باطلة وتذهب هذه الغرامة للدَّولة (الخزانة العامَّة)...**"[63]. فرضت الدَّولة السُّعوديَّة الأولى نظاما متشدِّدا في التَّعاملات المالية الشَّرعيَّة وتطبيقاتها على مناطق نفوذهم وذلك بعد صراع مرير مع القبائل البدويَّة والحضريَّة في المدن فوفق تعاليم النِّظام السَّابق الذِّكر، فقد جرت مصادرة مناطق كثيرة لصالح "**سعود**" بل أكثر من ذلك فقد قام بمصادرة ممتلكات أولئك الَّذين انضمُّوا إلى "**محمد علي**" باشا، أمَّا في نجد فملكيَّة الأرض مملوكة معظمها لبيت المال (الخزانة العامة)، لكن أرض القصيم الَّتي تمرُّد سكانها بصورة دائمة فهي على شكل مزرعة، يضاف إلى ذلك أن الكثير من قرى الحجاز والجبال المتاخمة لليمن مملوكة للخزانة.[64]

من خلال هذا النِّظام الصَّارم نجد أنَّ القائمين على الجباية بمختلف أشكالها يعاقبون معارضيهم بتطبيق المصادرة ويلحظ ذلك جلياً في المناطق القريبة من الحواضر أمَّا في البوادي فإنَّ السَّيطرة التَّامة للجُباة كانت

على بدو نجد معقل حكم الدَّولة، وهو ما يمثِّل ازدواجيَّة في تطبيق القوانين والالتزامات الضَّريبية، وربَّما ذلك راجع لطبيعة القبائل البدويَّة الَّتي تتوق لحرية التَّصرُّف في الممتلكات وشيوع الملكيَّة بين أفراد القبيلة وخصوصية الذِّمة الماليَّة لتلك القبائل مما استعصى على حكَّام الدَّولة تحصيل ايراداتها، وهو نفس الأمر الَّذي كانت تُلاقيه فرق الجباية التُّركيَّة في عملية جمع الزَّكاة والضَّريبة حيث يقابلها السُّكَّان بالرَّفض وعدم الامتثال. التزمت الدَّولة السُّعوديَّة بتطبيق الحدود الشَّرعيَّة على المخالفين لها ويذكر "**بوركهارت**" بعضا منها فيقول: "...**كان أشدَّ العقاب الَّذي يجري تنفيذه بأمر الشَّيخ الوهَّابي هو حلق اللِّحية على المتمرِّدين وخاصَّة من شيوخ القبائل..، أمَّا السَّارق فيجبَر على إعادة ما سرقه والاكتفاء بذلك..، أمَّا من يقتل غريمه في نزاع باستعمال خنجر أو مسدَّس يعدم...، تقييد أقدام المساجين بقيد يسمَّى "الدّباب"...، ضرب من يحلف بالطَّلاق ...، الإفطار في رمضان بلا عذر يعدم صاحبه...، تحريم الرِّبا وعقوباته قاسية...** "[65].

لم يتم تداول عملة معدنيَّة خاصَّة بالدَّولة بل كانت الدُّولارات هي العملة السَّائدة والسِّلع قليلة القيمة يجري تقييمها بمعايير القمح، أو تشترى بعملات قديمة مصنوعة من النُّحاس ترجع إلى أئمة اليمن، كما يتم تداول عملات "**الزّكوين**" البندقية، أما العملات المعدنية التُّركية لا يجري تداولها مطلقا وخاصَّة أثناء الحرب مع العثمانيِّين[66]. طبقا لهذه القوانين الصارمة فإنَّ الدَّولة السُّعوديَّة حاولت فرض نفوذها واستحكاماتها على مناطق الحجاز لفرض هيبة الحكم الجديد، ودعم موقعهم الاقتصادي الَّذي يضمن تمويل بيت المال في الدَّرعيَّة ومن ثمَّ ضمان تمويل سير العمليَّات العسكريَّة وإعاشة الجنود والمقاتلين، كما تضمن لهم شرعيَّة وجودهم على أرض الواقع كدولة وكقوَّة جديدة بديلة عن العثمانيِّين.

8- تقييم ومقارنة معارف بوركهارت حول الحركة الوهَّابيَّة

تنوَّعت المعرفة العلميَّة الَّتي قدَّمها "**جون لويس بوركهارت**" عن أرض الحجاز بين الوصف الطبوغرافي والطَّبيعي وحقل الأنثروبولوجيا والمونوغرافيا المتعلِّقة بالمدن والحواضر، دون أن تهمل سوسيولوجيا الحياة اليوميَّة الممتزجة بالمعارف التَّاريخية الَّتي يغوص من خلالها المؤلِّف في ثنايا التَّاريخ على شكل تأصيلي متميِّز، وهو ما يحمل دلالات استشراقيَّة واضحة في كونه مطَّلع على كثير من أحداث التَّاريخ الإسلامي وتجاذبات التَّشريع، الَّتي تمنحه رؤية فقهية في بعض الأحيان وتجلِّي شرعي عندما يقف على ممارسات المسلمين الَّتي لاحظها واستشعرها بحسِّه الدِّيني -كمسلم- أو بحكم موقعه الأصلي كمستشرق غربي من خارج الحضارة العربيَّة الاسلاميَّة. وانطلاقا من هذا يستوجب منَّا تحديد مدى العمق المعرفي المقدَّم حول تاريخ الحركة الوهَّابيَّة ومجمل محطَّاتها الَّتي أوردها في مؤلَّفاته الَّتي بين أيدينا. من خلال وقوفنا على مضامين مؤلَّفات "**بوركهارت**" حول الحركة الوهَّابيَّة أو بالأحرى أحداث الدَّولة السُّعوديَّة الأولى، يمكن أن نبدي الملاحظات التَّالية:

أوَّلا: بحكم تواجد "**بوركهارت**" في الحجاز وتجوله في المدن واتِّصاله بالسَّاكنة والعلماء؛ فإنَّه يستقي الأخبار والروايات من تعدُّد مضانها ويضعها في ميزان تقييم الصِّحة والثَّبات.

ثانيا: على اعتبار أنَّه حضي بحريَّة التَّجول والتِّرحال ضمن مجال الأحداث بالتَّوصية الرَّسميَّة من "**محمد علي**" باشا، فإنَّه امتلك حرِّية استقاء مصدر الخبر من جهة ومن جهة أخرى فإنَّه كان يملك زمام المبادرة في رصد المواقف والآراء من فعاليَّات المجتمع، حول مدى تقبُّل سيرورة أحداث الصِّراع ومنه نقل الانطباعات بنوع من المصداقيَّة دون أي شكوك أو ريبة أو تحفُّظ من الرُّوَّاة وشهود العيان، ويقول في هذا الشَّأن: "..**واصلت حياتي في القاهرة بعد عودتي إليها باعتباري مسلما دون أن يضايقني أحد في الحيِّ التركي وأنا لا يسعني إلاَّ أن أشكر "محمد علي" على استقباله الطيِّب لي في الطَّائف، وأشكره أيضا على عدم وضع عراقيل أو عقبات في طريق أسفاري في الحجاز**"[67].

ثالثا: ساهم دخول "**بوركهارت**" الإسلام واختباره النَّاجح في ذلك من طرف "**محمد علي**" باشا في فهم السُّلوك السِّياسي للمجتمع الحضري والقبائل البدويَّة على حدّ سواء، كما ساعده في صياغة الأحداث وتطوُّراتها دون إخلال بالمواقع والمؤثِّرات المعرفيَّة حولها لتخرج في قالب متكامل التَّركيب والصِّياغة.

رابعا: تمكَّن "**بوركهارت**" بحكم جودة اطِّلاعه وغوصه في شؤون الإسلام وتعاليمه وفرقه ومذاهبه أثناء تنقُّله بين البصرة والقاهرة ودمشق، بالإضافة إلى مشاهداته حول ممارسات الحكم التُّركي في الحجاز وغيره من فهم جملة المؤثِّرات التَّاريخية والعَقَديَّة والإثنيَّة الَّتي تتحكَّم في قولبة مفاهيم وجدليات الصِّراع وفهم النَّوايا والنَّفسيات، مما مكَّنه من إعطاءنا معارف متقبَّلة تحمل شيئا من الموضوعيَّة، ومن الأمثلة على هذا: "... **وقد اشتهر "سعود" بأنَّه رجل عادل جدًّا، لكنَّه كان قاسياً إلى حدِّ ما في أحكامه على المعتدين...** "[68].

خامسا: يتَّضح لنا من خلال كتابات "**بوركهارت**" حول الصِّراع الوهَّابي العثماني أنَّه وقف موقفا محايدا وتبنَّى نقل الأحداث والوقائع دون التَّأثير أو التَّأثُّر، فلم يبدي أيَّ موقف لصالح طرفي النِّزاع، فقد وقف على مسافة واحدة من الجميع، ويتجلَّى ذلك في أنَّه ينقل ممارسات كل طرف أثناء سيطرته على الحجاز كما وجدها لا كما يريدها هو. ومن أمثلة ذلك: "...**وقد توفِّي "سعود" في ماي 1814م بالحمى...وبذلك فقد الوهَّابيُّون قائدا لا يكلُّ ولا يَنِي، لديه كلَّ المواهب الضَّرورية للمنصب العظيم الَّذي احتلَّه...**"[69]. أمَّا بخصوص "**محمد علي**" فمن احكامه عليه: "... **اتَّبع سياسة التَّواضع مع القبائل وسكَّان المدن، كما عمل كل ما في وسعه على استمالة سكَّان الحجاز، فألغى الضَّرائب، وخفَّض جمارك جدَّة، ووزَّع مبالغ كبيرة من النُّقود، وكميات كبيرة من القمح على الفقراء والمحتاجين...**"[70].

سادسا: لم يستعمل في كثير من الأحيان أسلوب التَّحفُّظ في وصف الأحداث والشَّخصيَّات الَّتي سيطرت على مشهد الصَّراع الدَّائر، فعلى سبيل المثال عندما يصف دخول "**سعود**" الكعبة يقول: "...**وعندما استولى "سعود" على المدينة المنوَّرة دخل الحجرة بنفسه، واخترق المنطقة الواقعة خلف السِّتار (الكسوة)، واستولى على كل ثمين و غال فيها، كما باع "سعود" جزءا من هذه الكنوز إلى شريف مكَّة، وحمل الباقي معه إلى الدَّرعيَّة، ومن الأشياء الثَّمينة الَّتي أخذها سعود معه قطعة ثمينة جدا عبارة عن نجمة لامعة محاطة باللؤلؤ والماس كانت معلَّقة فوق قبر النَّبي محمد ﷺ**"[71].

سابعا: يبدو أنَّ عدم زيارة وتجوُّل "**جون لويس بوركهارت**" في نجد والبوادي الصَّحراوية البعيدة والدَّرعية عاصمة الدَّولة وحصن الحركة الوهَّابيَّة، واقتصاره على نقل مشاهداته واستقصاءاته حول حواضر مكَّة والمدينة المنوَّرة والطَّائف وجدَّة والطَّريق منهم وإليهم، قد أثَّرت في وصف تلك الربوع وتأثيرها في سير الوقائع، فيكتفي فقط بذكرها ضمن نسق الأحداث ولم يروي طريقه أو رحلته إليها، وذلك راجع لخوفه من الهلاك وتقطُّع السُّبل بسبب الحروب وعدم القدرة على السفر. وقد ذكر أسباب عدم ترحاله إلى موطن الحركة في نجد حين قال: "...**وردت في التَّقارير القليلة الَّتي سبق أن نشرت عن الوهَّابيَّة أقوال متناقضة وغير صحيحة والمعلومات الَّتي جمعتها من أوثق ما توصلت إليه... على أنَّه من المؤسف أن أبواب الحجاز خلال إقامتي فيها كانت موصدة أمام النَّجديِّين بسبب حربهم مع محمد علي** ..."[72].

ثامنا: اقتصرت الحدود المعرفية المتعلِّقة بالحركة الوهَّابيَّة في اسطوغرافيا "**بوركهارت**" على الأحداث من المحصورة من منتصف القرن الثَّامن عشر إلى غاية نهايتها بسنة واحدة 1818م، وهو فترة حضور الدَّولة السُّعوديَّة الأولى على اعتبار أنَّ "**بوركهارت**" توفِّي سنة 1817م. وبخصوص المقارنة المعرفيَّة مع الكتابات الاستشراقيَّة المماثلة والمعاصرة له، فيمكن القول أنَّ المستشرق البريطاني "**هارفرد جونز**" قد اعتمد في كتابه "**موجز للتاريخ الوهَّابي**" على كثير مما كتبه "**بوركهارت**" عن الحركة الوهَّابيَّة وخاصَّة فيما تعلَّق بالحملات العثمانيَّة المصريَّة الَّتي قام بها "**محمد علي**"، والأنظمة التي طبَّقتها الدَّولة السُّعوديَّة الأولى.[73] ويبدو أنَّ اعتماده هذا راجع لبعده عن سير الأحداث المؤثِّرة في الصِّراع العثماني الوهَّابي، حيث كان يشتغل في شركة الهند الشَّرقيَّة بوكالة البصرة، حيث كان على رأسها في تلك الفترة أمَّا رحلة المستشرق "**ج. فورستر سادلير**" فقد كتاباته منطلقة من الكمّ المعرفي الاستقصائي الَّذي قدَّمه "**بوركهارت**" حول نشاط الحركة الوهَّابيَّة في دورها الأوَّل باعتباره كتب عن الدَّور الثَّاني وبدايته العام 1819م، ومن هنا تأتي منطلقات بحثه في كتابه "**مذكِّرات رحلة عبر الجزيرة العربيَّة خلال عام 1819م**" حيث تكمن أهمية هذا المؤلَّف في أنَّه عمل استخباراتي يهدف إلى فهم طبيعة الوجود السِّياسي للأنظمة العشائريَّة الَّتي تحكم الجزيرة العربيَّة في تلك الفترة الَّتي عقبت سقوط الدَّولة السُّعوديَّة الأولى لفهم توجُّهاتها، ومحاولة التَّموقع في الصِّراع العثماني البريطاني على المنطقة .

يمكن وصف ما قدَّمه "**بوركهارت**" من أدبيَّات حول الدَّولة السُّعوديَّة الأولى والحركة الوهَّابيَّة ونشاطها السِّياسي والعسكري والحضاري والدِّيني في الحجاز ونجد، وخاصَّة ما تعلَّق بالعمليَّات الحربيَّة والمواجهة مع "**محمد علي**" بأنَّه فريد ومتميِّز، ضف إلى ذلك ما قدَّمه من وصف مونوغرافي عميق للمدن والحواضر والبوادي الحجازية في تلك الفترة، وهو ما يجعله مصدرا لكثير من الرَّحالة اللاَّحقين بعده، كرصيد معرفي موسوعي يكون سنداً لهم في بناء الصُّورة المتكاملة حول المنطقة قبل وصولهم إليها، وفي هذا الشَّأن تقول الكاتبة "**جاكلين بيرين**": "...**تمكَّن** "بوركهارت" **دفعة واحدة من أن يقدِّم لوحة عن المجموعات القبلية والمميِّزات السِّياسيَّة الخاصة بكل منها وعن حالتها الاقتصاديَّة و تنظيمها الاجتماعي ومبادئها الأخلاقيَّة وعاداتها، إلى درجة أنَّه يعزى له الشَّرف في اكتشاف المجتمع البدوي أكثر من اكتشافه البتراء بالتنقيب العميق والدِّقة الواعية...**"[74].

ومن المؤكَّد أنَّ وفاة "**جون لويس بوركهارت**" في سنِّ الثَّالثة والثَّلاثين، وفي خضمِّ أخبار القضاء على الدَّولة السُّعوديَّة وفتور وترميم العلاقة بينها وبين السُّلطة العثمانيَّة لفترة قبل عودة الأحداث والتَّمرد من جديد، كان حائلا دون استكمال المعارف حول هذه الحركة كما تعتبر وفاته خسارة معرفيَّة للحضارة الإنسانية وهدم عقلي لجسور التَّواصل بين الشَّرق والغرب في تلك الفترة المهمَّة من تاريخ شبه الجزيرة العربيَّة.

خاتمة

انطلاقا من الدَّور المعرفي للرَّحلات الغربية في البلاد العربية الاسلامية عموما، وبناء على ما يترسَّخ في المِخيال الاستشراقي لدى هؤلاء الرَّحالة والمستشرقين بكل أطيافهم ومراكزهم العلميَّة والسِّياسيَّة، تأتي رحلات "جون لويس بوركهارت" لتُميط اللِّثام عن أهمِّ أدوار الدَّولة السّعودية الأولى وهي في آخر فتراتها الَّتي تزامنت مع تصاعد الدَّور السِّياسي والعسكري لشخصيَّة " محمَّد علي باشا"، حيث لعب تحدِّي القضاء على الدَّولة الجديدة النَّاشئة في الحجاز في صناعة مجد سيكون له الأثر البالغ في تحديد علاقته بالدَّولة العثمانيَّة في تلك الفترة الحرجة من تاريخها.

تمكَّن "**جون لويس بوركهارت**" من خلال كتاباته من أن يعطي حقائق تاريخيَّة متميِّزة حول الحركة الوهَّابيَّة من جانبَيها الرَّمزي والسِّياسي والعسكري، على اعتبار أنَّه عايش آخر فصول تجربة اتِّحاد السَّيف مع القرآن، والَّتي ستبقى منطلقا بحثيًّا لا يمكن التَّغاضي عنه للرَّحالة والمستشرقين الأوربيين الَّذين سيأتون بعده.

تُمثِّل جملة المعارف المقدَّمة حول الحجاز وما جرت فيه من أحداث في بداية القرن التَّاسع عشر مرجعيَّة مهمَّة للباحثين في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة.

استطاع "**بوركهارت**" بخبرته ورباطة جأشه أن يقاوم ظروفه الصحيَّة السيِّئة الَّتي اعترضت مكوثه في الحجاز لمدَّة أطول، ويؤلِّف معارف تشمل التَّاريخ والجغرافيا وعلم الإجتماع والمونوغرافيا والأنثربولوجيا وغيرها تخص الجزيرة العربيَّة وبلاد الشَّام ومصر والسُّودان ليعطي تصوُّرات الغرب وذهنيَّته حول المجتمعات العربيَّة والاسلاميَّة.

كان للحجاز حضور معرفي خاص في كتابات "**بوركهارت**" نظرا لارتباطه الوجداني به وبمقدساته، كما كانت الأحداث الدَّائرة هناك مادَّة دسمة في يوميَّاته في مصر، مما سهَّل عليه استقاء معارفه من مضانِّها، كما لعبت عناية "**محمد علي باشا**" به دورا في التَّنقل بين الحجاز ومصر في فترات الهدوء والسلم، ممَّا مكَّنه من الوقوف على مجريات الأحداث عن كثب.

أثَّرت المعرفة العلميَّة الَّتي قدَّمها "**بوركهارت**" للجمعيَّة الملكيَّة الإفريقيَّة بلندن في متابعة وتوجيه الدَّور التَّاريخي الاستعماري لشركة الهند الشَّرقية، حيث رسمت الخطوط العريضة لمنطقة الخليج وتنامي الدَّور البريطاني في المنطقة، بناءا على فهم سيكولوجيا المجتمع العربي وخبايا التَّجارب السِّياسيِّة الَّتي تتناسب ومتطلَّبات المرحلة الَّتي عرفت ارتباك أطراف الدَّولة العثمانيَّة وبداية تشكُّل الثِّقل العربي.

اتَّسمت جملة المعارف الَّتي قدمها "**بوركهارت**" حول الحركة الوهَّابيَّة وتفاعلاتها المختلفة من حيث بنية المجتمع الدِّينيَّة، وشكل السُّلَط الدينية والسِّياسيَّة بالدِّقَّة والتَّأصيل التَّاريخي في شكل المقاربة السُّوسيوتاريخيَّة الَّتي تعطي الأحداث بُعدا استرجاعيًّا وواقعيا يرى فيه الباحث الرُّؤية الَّتي تكتمل بالتَّعرُّف على معطيات كل حدث السَّابقة واللَّاحقة، وبذلك فقد أعطى للمهتمِّين بتاريخ الحركة الوهَّابيَّة الصُّورة الموضوعيَّة إلى حدّ ما، حيث لا يمكن الاستغناء عنها لدى دراسة هذا الموضوع.

الهوامش:

1) الحجري، هلال، (2008)، **أدب الرَّحلات والاستشراق البحث عن المنهج، الكويت**، المجلَّة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد2/102، ص 11-62.

2) لكحل، فيصل، (2020)، **الاستشراق من منظور ادوارد سعيد**، الشّلف، الأكاديمية للدِّراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي، المجلَّد 12، العدد1، ص 192-201.

3) المرجع نفسه، ص 194.

4) بكر، تامر طه، (د.ت)، **السَّلفية بعيون غربيَّة**، ط1، الرِّياض، منشورات مركز البيان للبحوث والدِّراسات، ص29.

5) الحساني، ساجدة، (2018)، **أبعاد ومحدِّدات الرُّؤية الاستشراقية في دراسة التراث والتَّاريخ الإسلامي**، لبنان، مجلَّة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدِّراسات الإستراتيجية، العدد 15، ص 73- 92.

6) الزِّيادي، محمد فتح الله، (1998)، **الاستشراق أهدافه ووسائله – دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون –**، ط1، دمشق، دار قتيبة للنَّشر والتَّوزيع، ص 15.

7) النَّدوي، أبي الحسن علي، (2002)، **مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين**، ط1، دمشق، جمع وإعداد، عبد الماجد سيِّد عمر، دار ابن كثير، ص 15.

8 سعيد، إدوارد، (2006)، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشَّرق**، ط1، القاهرة، تر: محمد عناني، رؤية للنَّشر والتَّوزيع، ص 45. 46.

9) المرجع نفسه، ص 44.43.

10) المرجع نفسه، ص 44.

11) الشَّرقاوي، محمد عبد الله، (1989)، **الاستشراق والغارة الفكرية على العالم الإسلامي**، (د.ط)، القاهرة، دار الهداية للنَّشر والتَّوزيع، ص56.

12) المرجع نفسه، ص57.56.

13) سجولدهير، ايجنا، (2012)، **العقيدة والشَّريعة في الإسلام**، (د.ط)، القاهرة، تر: موسى، محمد يوسف وآخرون المركز القومي للتَّرجمة، ص 4.

14) النَّبهان، محمد فاروق، (2012)، **الاستشراق تعريفه مدارسه آثاره**، (د.ط)، الرِّباط، منشورات المنظَّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثَّقافة – إيسيسكو-، ص52.

15) فتح الله، محمد، (2015)، **التَّرجمات الاستشراقية للقرآن الكريم دراسة لترجمتي ريجيسبراجير وجاك بيرك**، مذكرة دكتوراه في اللُّغة والأدب العربي، كلِّية الآداب والفنون، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعبَّاس، الجزائر، ص 46.45.

16) الشَّرقاوي، محمد عبد الله، المرجع السابق، ص 33.

17) المرجع نفسه، ص 34.33.

18) للمزيد: ينظر: الخطيب، عبد الله عبد الرحمن، (د.ت)، **الرَّد على مزاعم المستشرقين "إجناتس جولدتسيهر" و"يوسف شاخت" ومن أيَّدهما من المستغربين**، د.ط، د.ب.ن، د.د.ن، ص 39.9.

19) البيانوني، فتح الدين، (2012)، **مدخل إلى الاستشراق المعاصر وعلم الحديث**، د.ط ، الرِّياض، منشورات مؤسَّسة كرسي الأمير سلطان للدِّراسات المعاصرة ، ص103.

20) المرجع نفسه، ص52.

21) النَّعيم، عبد الله محمد الأمين، (1997)، **الاستشراق في السِّيرة النَّبوية**، ط1، السُّودان، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص 39.38.

22) الدَّسوقي، محمد، (د.ت)، **الاستشراق والفقه الإسلامي**، (د.ط)، (د.ب.ن)، (د. د .ن) ، ص 725.

23) المرجع نفسه، ص 713.

24) السِّباعي، مصطفى، (د.ت)، **الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم**، (د.ط)، (د. ب. ن)، دار الوراق للنَّشر والتَّوزيع، ص30.31.

25) عمايرة، اسماعيل أحمد، (1992)، **المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية**، ط2، عمان، دار حنين للنَّشر والتَّوزيع، ص 59 .60.

26) النَّدوي، أبي الحسن علي، المرجع السابق، ص 16.15.

27) علي، يوسف موسى، (2012)، **الهدف الدِّيني من الاستشراق من دراسة التُّراث الإسلامي من وجهة نظر محمد البهي وحمد ياسين عريبي**، ماليزيا، المجلَّة الدَّولية للفكر الإسلامي، قسم الثيولوجيا والفلسفة، جامعة كيبانغسان، المجلد 1، جوان ، ص 87-97.

28) آل حميد، سعد، (د.ت)، **أهداف الاستشراق ووسائله**، (د.ط)، الرِّياض، منشورات جامعة الملك سعود كلية التربية قسم الثَّقافة الإسلامية، ص 7.6.

29) النَّبهان، محمد فاروق، المرجع السابق، ص 19.18.

30) سعيد، إدوارد، المرجع السابق، ص17.16.

31) النَّملة، علي بن ابراهيم، (1996)، **إسهامات المستشرقين في نشر التُّراث العربي الإسلامي – دراسة تحليلية**-، ط1 الرِّياض، منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية، ص24.

32) الزِّيادي، محمد فتح الله، المرجع السابق، ص 42.41.

33) الشّرقاوي، محمد عبد الله، المرجع السابق، ص 22.

34) بوسليم، صالح، (2016)، **حركة الاستشراق المفهوم النَّشأة الدَّوافع والأهداف**، سيدي بلعباس، مجلَّة الحوار المتوسطي، جامعة جيلالي اليابس، العدد 11 مارس. ص 225-245.

35) كاظم، إلهام محمود، (2017)، **وصف الرَّحَّالة المستشرق جوهان لودفيج بوركهارت لقبور البقيع**، بيروت، مجلَّة دراسات استشراقية، العدد 12، المركز الإسلامي للدِّراسات الإستراتيجية، ص ص 155- 188، ص156.

36) بوركهارت، جون لويس، (2007)، **رحلات بوركهارت في بلاد النُّوبة والسُّودان**، (د.ط)، القاهرة، تر: أندراوس فؤاد، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، ص 1.

37) كاظم، إلهام محمود، المرجع السابق، ص156.

38) بوركهارت، جون لويس، المصدر السابق، ص 21:17.

39) كاظم، إلهام محمود، المرجع السابق، ص158.157.

40) بوركهارت، جون لويس، المصدر السابق، ص25.24.

41) كاظم، إلهام محمود، المرجع السابق، ص158.

42) بوركهارت جون لويس، المصدر السابق، ص25.

43) المصدر نفسه، ص28.27.

44) كاظم، إلهام محمود، المرجع السابق، ص 158. 159.

45) Burckhardt, John Lewis,(1822), London ,**Travels in Seria And The Holy Land** , Association For Promoting The Discovery of The Interior Parts of Africa.p 02.

46) Ibid. p25.

47) بوركهارت، جون لويس المصدر السابق، ص 22.

48) المصدر نفسه، ص 24.

49) بوركهارت، جون لويس، (2000)، **العادات والتَّقاليد المصرية من الأمثال الشَّعبية في عهد محمد علي**، ط3، القاهرة تر: إبراهيم أحمد شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 19.18.

50 بوركهارت، جون لويس، (2007)، **ترحال في الجزيرة العربية يتضمَّن تاريخ مناطق الحجاز المقدَّسة عند المسلمين**، ط1، القاهرة، تر: صبري محمد حسن، المركز القومي للتَّرجمة، ج2، ص10.

51) المصدر نفسه، ص 127.126.

52) المصدر نفسه، ص 136.

53) بوركهارت، جون لويس، (2007)، **ملاحظات عن البدو والوهَّابيين جرى جمعها خلال التِّجوال في الشَّرق**، ط1، القاهرة، تر: صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، ج2، ص 89.88.

54) المصدر نفسه، ص 162.

55) المصدر نفسه، ص 85.

56) المصدر نفسه، ص 90.

57) الوردي، علي، (2007)، **قصَّة الأشراف وابن سعود**، ط3، بغداد، دار الوراق للنَّشر، ص 24.

58) بوركهارت، جون لويس، **ترحال في الجزيرة العربية**، المصدر السابق، ج1، ص 277.

59) بوركهارت، جون لويس، **ملاحظات عن البدو والوهَّابيين**، المصدر السابق، ج1، ص 131.

60) المصدر نفسه، ص 143.

61) المصدر نفسه، ص 1500. 154.

62) المصدر نفسه، ص 156.

63) المصدر نفسه، 91. 93.

64) المصدر نفسه، ص 93.

65) المصدر نفسه، ص 87. 90.

66) المصدر نفسه، ص 90.

67 بوركهارت، جون لويس، (2007)، **ترحال في الجزيرة العربية**، مصدر سابق، ج2، ص 112.

68) بوركهارت، جون لويس، (د.ت)، **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين**، (د.ط)، (د.ب .ن)، تر: العثيمين، عبد الله الصَّالح (د.د.ن.)، ص47.

69) المصدر نفسه، ص 153.

70) المصدر نفسه، ص 152.

71) بوركهارت، جون لويس، (2007)، **ترحال في الجزيرة العربية**، المصدر السابق، ج2، ص 113.112.

72) بوركهارت جون لويس، **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين**، المصدر السابق، ص 9.

73) بريدجز، هارفرد جونز، (2004)، **موجز لتاريخ الوهَّابي**، ط1، الرِّياض، تر: الجهني، عويصة بن متيريك، دار الملك عبد العزيز للنشر، ص9.

74) للمزيد ينظر: بيرين، جاكلين، (د.ت)، **اكتشاف جزيرة العرب– خمسة قرون من المغامرة والعلم**–، بيروت، تر: قلعجي قدري، دار الكتاب العربي، ص 117.